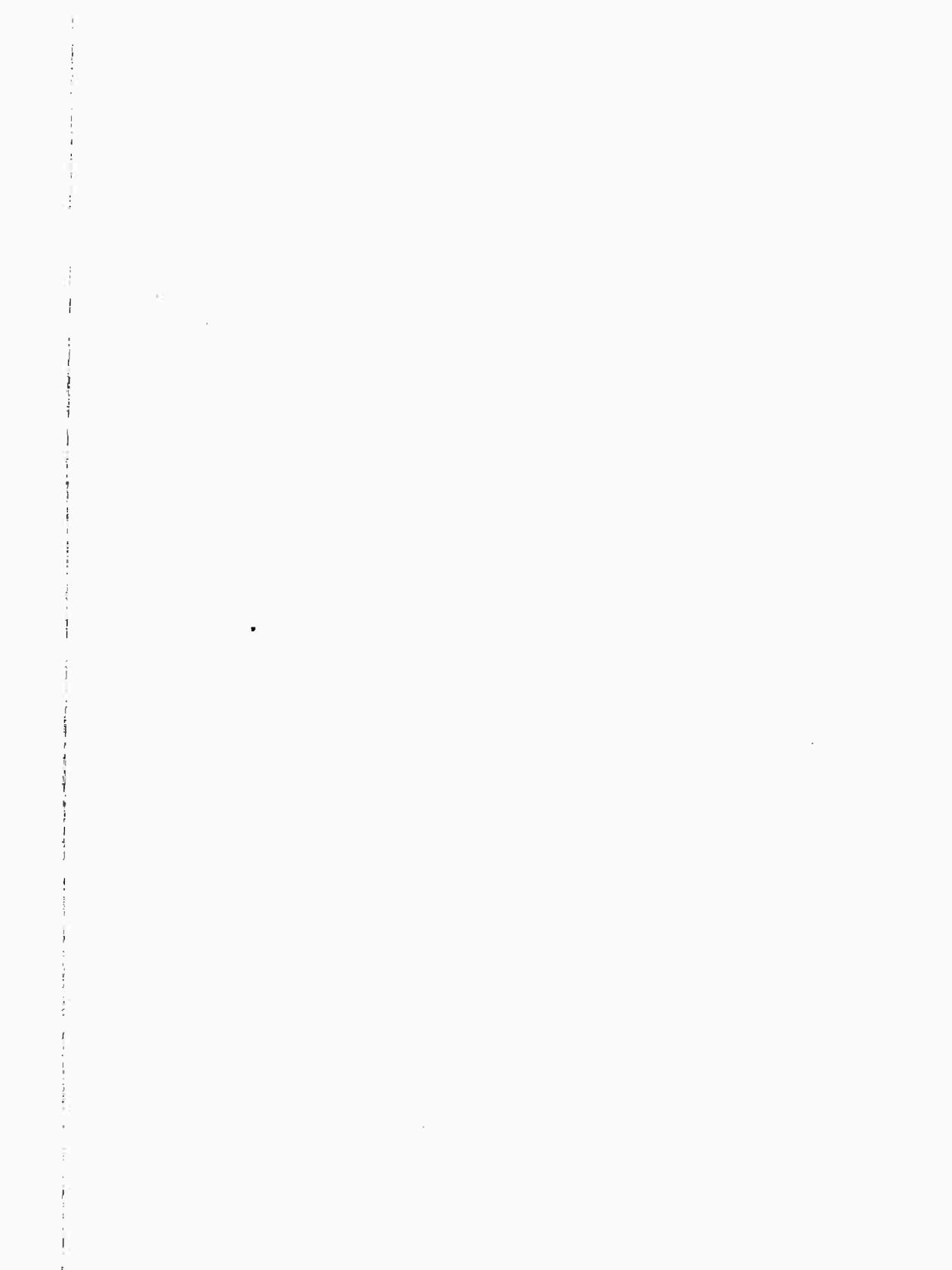


القسم الثالث

موريتانيا



# الفصل الأول

## الجغرافية والتاريخ

١

### الجغرافية<sup>(١)</sup>

تقع موريتانيا في الشمال الغربي من إفريقيا جنوبي المغرب الأقصى والجزائر، وفي أقصى شمالها الشرقي الصحراء الغربية، ويحاذيها في الغرب المحيط الأطلسي، ويشغل الشرق منها دولة مالي، وتحاذيها في الجنوب دولة السنغال واسمها تحريف لكلمة صنهاجة التي نزلت بها قبائلها البربرية وامتدت إلى نهر النيجر وشواطئه وإلى إقليم مالي.

وهي تشغل الجزء الغربي من الصحراء الكبرى التي تمتد حزاماً بين بلاد السودان والبلاد المغربية، وتتناثر على رقعتها مناطق جبلية أشبه بهضاب متسعة، وملتقى فيها من حين إلى حين بآبار وواحات صغيرة، وقد نُمضى مائة كيلومتر دون أن نعر على بئر أو ماء، مما يجعل القوافل المارة بها في حاجة إلى دليل يقودها لاسيما على الطرق التجارية الذاهبة إلى السودان والآية منه، وسطحها رمال سائلة وكتبان متنقلة، تنقلها الرياح والعواصف الشديدة من مكان إلى مكان، وطُمرت - على مر العصور - كثير من القرى والبلدان، والجو - وخاصة في الصيف - شديد الحرارة، ويعتدل في المناطق الجبلية وعلى ساحل المحيط، وتهب بها صيفا ربح السيروكو الحارّة والحملة بالرمال، والأمطار بها قليلة قلة شديدة حتى لتندم في بعض الأنحاء. وقد تصبح الصحراء جافة جدا وقاحلة جدا كالمنطقة الجنوبية الشرقية بين آبار أروان وآبار أزواد، وهما في رمال كالحلة لا نبات فيها ولا زرع ولا ضرع، وهما محطتان على الطريق التجاري إلى تمبكتو وبلاد السودان. وحينما توجد آبار تنشأ قرى وبلدان يكثر فيها النخيل والكلأ، ويزرع تحت النخيل في الخريف الشعير والدخن والذرة وأحيانا القمح والبطيخ. وتنمو بموريتانيا أشجار صحراوية مثل السدر والطلح.

وفي أقصى الشمال الغربي لموريتانيا مدينة الساقية الحمراء التي أُسست سنة ١٨٨٤ للميلاد،

وكتاب الوسيط في تراجم أدباء شنتيط للأستاذ أحمد بن الأمين الشنتيطي

(١) انظر في جغرافية موريتانيا كتاب وصف إفريقيا للحسن الوزان في مواضع متعددة ورحلة ابن بطوطة في أواخرها حيث وصف رحلة له إلى السودان الغربي

وفى الوسط إلى الغرب إقليم آدرار ، وهو جبال شامخة متصلة أشبه بهضبة كبيرة يسير الراكب فيها ستة أيام طولا وخمسة أيام عرضا ومن أهم مدن هذا الإقليم شنقيط وكانت العاصمة الثقافية لموريتانيا حتى نهاية القرن الماضى ، ويقال إنها شُيّدت بواحة آبير فى القرن السادس الهجرى/الثانى عشر الميلادى ، وغلبت عليها الرمال فبنيت فى القرن الثامن الهجرى/الرابع عشر الميلادى . وكانت موريتانيا - من حيثئذ - تسمى بلاد شنقيط ، ويسمى شعبها الشناقطة ، وسميت فى القرن الحاضر باسم « موريتانيا » وهو الاسم القديم الذى كان يطلقه الرومان عليها وعلى المغرب الأقصى . وتقع غربى شنقيط مدينة آطار التى بناها السامسة فى القرن الماضى . وإلى الجنوب من شنقيط حصن أزكى ومدينة أودغشت اللذان اتخذهما المرابطون فى القرن الخامس الهجرى قاعدة لجيوشهما الناشرة للإسلام فى السنغال وغينيا ومالى . وفى الجنوب الشرقى من إقليم آدرار إقليم تكانت وهو مثله هضبة مرتفعة أو بعبارة أدق جبال متصلة عليها مدن وقرى أهمها مدينة تيججكة التى بنيت منذ ثلاثة قرون وهى كثيرة النخل والزروع ، ومن مدن الإقليم مدينة تيشيت فى منطقة رملية وعلى مقربة منها - كما يقول الحسن الوزان - رقعة صالحة للزراعتها نخيل كثير ورقعة أخرى تزرع شعيرا ودَحَنًا . والماشية نادرة والغنم الصحراوى كثير . ويشغل أهلها بالتجارة وحمل عروضها أو بضائعها بين السودان والمغرب الأقصى ، وهى - إلى ذلك - كانت محطة مهمة للقوافل التجارية . وإلى الشمال الشرقى من شنقيط مدينة وادان وهى مبنية على مرتفعات صخرية وتشرف على واديين بهما نخل كثير ، وأهلها أصحاب سَبَحة إِبْجَل فى الشرق المشهورة بمناجم الملح ومنها يُحْمَلُ إلى شنقيط وبلاد السودان . وحلّت محل مدينة تغازى التى كان يحمل الملح من مناجمها زمن ابن بطوطة فى القرن الثامن الهجرى ، ونزل بها فى رحلته إلى السودان وفيها يقول : « من عجائبها أن بناء بيوتها ومسجدها من حجارة الملح وسقفوها من جلود الجمال ، ولا شجر بها ، إنما هى رمل فيه معدن الملح يحفر عليه فى الأرض فيوجد منه ألواح ضخام متراكبة كأنها قد نُحِتَتْ ووُضِعَتْ تحت الأرض يحمل البعير منها لوحين ، ويأىء الحمل منه فى ولائه بعشرة مثاقيل ذهباً وفى مالى بثلاثين مثقالاً ، ويُقَطَّع قطعاً يُتَبَاعُ بها كما يتباع بالذهب والفضة ، وقرية تغازى يتعامل فيها بالقناطير المقنطرة من التبر ، ويقول الحسن الوزان إنه ليس لعمالها من أقوات إلا ما يُجَلَّبُ لهم من تمبكتو فى السودان أو الدرعة فى المغرب الأقصى الواقعتين على مسافة عشرين يوماً من تغازى ، وماء آبارها مالح . وفى الجنوب الغربى من موريتانيا مدينة بوتليميت ، وهى عاصمتها الثقافية الآن لوجود معهد إسلامى بها وتشتهر الأنحاء فى الجنوب الغربى بما فيها من مناجم الحديد وهى

تدرّ على البلاد خيرا كثيرا . ومن أهم مدن الجنوب الشرقي مدينة ولّاتة ، وكانت محطة مهمة للقوافل التجارية ، وكان بها حدائق نخيل وتبت بقعتها الدخن وحبا مدورا أبيض اللون كما يقول الحسن الوزان ، وتعانى المنطقة - كما يقول - من ندرة اللحم ، وكان أهلها يقومون على إرشاد القوافل العابرة للصحراء وحمايتها حتى السودان وحتى المغرب الأقصى مما كان يدرّ عليهم خيرا كثيرا .

## ٢

### التاريخ<sup>(١)</sup>

كانت قبائل صنهاجة الصحراوية تنزل من قديم فى الشطر الغربى من الصحراء الكبرى جنوبى الجزائر والمغرب الأقصى فاصلة بينهما وبين القبائل السودانية المدارية ، وكانت بعض هذه القبائل تنحدر حتى ضفاف نهر السنغال ، ونفس كلمة السنغال إنما هى تحريف لكلمة صنهاجة على لسان البرتغاليين حين نزلوا بسواحلها ، فسموها Senhagal ثم أصبحت Senegal . ويقول ابن أئى زرع إن صنهاجة الصحراوية تنقسم إلى سبعين قبيلة ، منها لمتونة وكدالة ومسوفة ولمطة وبنو وارث ومنداسة ، وفى كل قبيلة بطون وعشائر أكثر من أن تحصى . وكثير منهم لا يعرفون حرثا ولا زرعاً ولا ثمارا ، وإنما أموالهم الأنعام ، وعيشهم اللحم واللبن ، وهم على مذهب أهل السنة والجماعة ، ويجاهدون فى السودان .

وظلت تلك القبائل تعيش فى الحزام الصحراوى الفاصل بين البلاد المغربية والسودان على أتعامها وألبانها ولحومها وصوفها وأوبارها متخذة منها الخيام ، وكانوا يضعون اللثام على رؤوسهم ووجوههم شعارا لهم ، ولذلك سما المثلثين . وأخذت أضاء الإسلام تنفذ إليهم منذ عهد عقبة بن نافع الفهري وولايته على الديار المغربية ( ٥٠ - ٥٥ هـ ) إذ أسلم على يديه منهم بنو وارث ، ومضوا يجاهدون السودانين الغربيين واتسع اعتناق تلك القبائل للإسلام فى عهد موسى بن نصير ( ٨٦-٩٦ هـ ) ولما استولى عبد الرحمن بن حبيب على مقاليد الحكم فى البلاد المغربية ( ١٢٧-١٣٧ هـ ) عنى بالطريق التجارى المار بقبائل صنهاجة

إفريقيا « فى مواضع مختلفة ورحلة ابن بطوطة فى حديثه عن ولاتة وكتاب مناهل الصفا للفشتال ص ٥٨ وما بعدها . وكتاب الوسيط لابن الأيمن الشنيطى ، وإمبراطورية غانة الإسلامية وإمبراطورية مال الإسلامية للدكتور إبراهيم طرخان .

(١) انظر فى تاريخ موريتانيا المغرب فى ذكر بلاد إفريقية والمغرب للبكرى وحديثه عن جارتها غانة وكتاب روض القرطاس لابن أئى زرع ( طبع الرباط ) ص ١٢٠ وتاريخ ابن خلدون ( طبع بولاق ) ١٨٢/٦ وحديث ابن حوقل عن السودان الغربى فى كتابه : « صورة الأرض » وراجع كتاب الحسن الوزان : « وصف

غربي الصحراء الكبرى ، إذ حفر عليه من سجلماسة فى جنوبى المغرب الأقصى إلى بلاد السودان الغربى آباراً للقوافل التجارية تنزل عندها وتأخذ كفايتها من الماء فى مسيرتها الصحراوية .

وأخذ الإسلام يتسرب سريعاً إلى بلاد السودان الغربى عن طريق القبائل الصنهاجية فى موريتانيا والتجار المسلمين ، ويقول أبو عبد الله البكرى فى كتابه المغرب فى ذكر بلاد إفريقية والمغرب إن بنى أمية أرسلوا جيشاً لفتح بلاد السودان ، واستقرت ذرية منه فى بلاد غانة ، وكانت حينئذ تقع فى شرقى السنغال الحديثة وجنوبى مالى الحديثة أيضاً ، وإذا صح ذلك فإن هذا الجيش حمل قديماً إلى ديار السودان الغربى الدين الحنيف وبقى هناك من يدعو إليه ، ويتصل بذلك ما جاء فى صبح الأعشى من أن أهل غانة أسلموا فى أول الفتح . ونجد القبائل الصنهاجية - وخاصة لتونة - تتجمع فى مدينة أودغست جنوبى منطقة آدرار وتحدث فيها ما يشبه إمارة - ويسمىها بعض جغرافى العرب مملكة - ويذكر ابن أبى زرع من أمرائها أو شيوخها أو ملوكها - كما يقول - تيلوتان وكانت ولايته مسيرة ثلاثة أشهر فى مثلها كلها عامرة ، وكان يركب فى مائة ألف بعير ، وهو عدد ضخّم من الإبل ، وكان فى زمن عبد الرحمن الداخل سلطان الأندلس ( ١٣٨ - ١٧٠ هـ ) وطال عمره إلى أن توفى سنة ٢٢٢ هـ / ٨٣٦ م وكانت أيام حكمه خمسا وستين سنة ، ودان له - كما يقول ابن أبى زرع - أزيد من عشرين ملكاً من ملوك السودان . ولم يكونوا ملوكاً بالمعنى الحقيقى لكلمة ملوك ، إذ لم تكن لهم حكومات ولا دساتير دول ، إنما كانوا زعماء لأقوامهم ، وربما كانوا شيوخ - أو سادة - قبائل ، وأكبر الظن أن فى هذا العدد من الزعماء مبالغة . وخلفه حفيده الأثير بن فطر ، فقام بأمر صنهاجة الصحراوية أو الموريتانية خمسا وستين سنة إلى أن توفى سنة ٢٨٧ هـ / ٩٠٠ م وولى بعده ابنه تميم إلى أن توفى سنة ٣٠٦ هـ / ٩١٨ م . واضطربت شئون صنهاجة الموريتانية بعده فترة ثم اجتمعت على يروتان بن ونسبو بن نزار اللمتونى الأودغستى فملك الصحراء بأسرها على عهد عبد الرحمن الناصر ( ٣٠٠ - ٣٥٠ هـ ) وابنه المستنصر ( ٣٥٠ - ٣٦٥ هـ ) وكان يركب - مثل تيلوتان فى مائة ألف بعير ، وكان حكمه مسيرة شهرين فى مثلها ودان له عشرون ملكاً من ملوك السودان - مثل تيلوتان - يؤدون له الجزية ، وملك من بعده بنوه ثم افرقت كلمة الصنهاجيين ، وعظم أمر مملكة غانة واستولت على أودغست ، وكانت تمون بلاد السودان بالملح الوارد إليها من تغازى ومن أجله استولت عليها غانة .

وتتجمع صنهاجة تحت لواء الشيخ أو الأمير أبى عبد الله محمد بن تيفاوت المعروف باسم تاوشتا اللمتونى وكان من أهل الدين والفضل والصلاح والجهاد والحج ، وظل أميراً على صنهاجة الموريتانية مدة ثلاث سنوات إلى أن استشهد فى إحدى غزواته . وولى أمر صنهاجة

الموريتانية بعد تاوشتا اللمتونى صهره يحيى بن إبراهيم الكدالى ، وخرج فى سنة ٤٢٧ هـ/١٠٣٥ م لأداء فريضة الحج والزيارة النبوية فى رؤساء من قومه ، وفى عودته اجتمع فى القيروان بأبى عمران الفاسى شيخ المذهب المالكى بها المتوفى سنة ٤٣٠ هـ/١٠٣٨ م وعرفه بما فى صنهجة الصحراء الموريتانية من الجهل بشئون الدين الخفيف وتعاليمه ، وسأله أن يوجه معه أحد تلاميذه ليصّرهم بأمر دينهم ، وعرض الشيخ رغبته على تلاميذه ، فلم يستجب منهم أحد ، فكتب له رسالة إلى فقيه من تلاميذه بمدينة سجلماسة جنوبى المغرب الأقصى هو محمد وجاج أو وفاق بن زلو اللمطى . وطلب إليه فى رسالته أن يعرض الأمر على طلابه ، لعل واحدا منهم يقبل المسيرة مع يحيى الكدالى ، وقبلها فقيه تقى ورع من تلاميذه هو عبد الله بن ياسين الجزولى .

ورجع يحيى الكدالى إلى قومه الصنهاجيين بعبد الله بن ياسين فأخذ يحفظهم القرآن الكريم ويفقههم على تعاليم الدين الخفيف ، ويأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ، فالتفتوا حوله ، وبعد فترة ازوروا عنه ، وتوفى حامي يحيى الكدالى فأجمعوا على الانصراف عنه لما يأخذهم به من مشاق التكاليف الدينية . وأخذ يفكر فى تركهم والعودة إلى موطنه ، غير أن زعيما من لمتونة الصنهاجية الموريتانية هو يحيى بن عمر أشار عليه أن يعتزل معه للعبادة والنسك فى جزيرة على مقربة من مصب نهر السنغال ، ونزلاها معا ، ونزلا معها سبعة من قبيلة كدالة الصنهاجية ، وبنى بها عبد الله بن ياسين رباطا للنسك ، وأخذ يلتحق به عشرات من أشرف صنهاجة ، كان يفقههم فى الدين ، حتى إذا بلغوا ألفا قال لهم : إن ألفا لن يُغلبوا من قلة ، وقد تعين علينا - أيها المرابطون - القيام بالحق والدعاء إليه ، وحمل الكافة عليه ، وبذلك ساهم : المرابطون ، وغلب هذا الاسم على صنهاجة الصحراوية الموريتانية بجانب الاسم القديم : الملتمين ، وخرجوا معه ، وجعل أمرهم فى الحرب إلى الأمير يحيى بن عمر اللمتونى ، وقتل هو ويحيى من استعصى على الحق من قبائل صنهاجة الموريتانية ، ومضيا فى سنة ٤٤٢ هـ/١٠٥٠ م يدعوان إلى الإسلام فى سودانى التكرور وحوض السنغال الأدنى وما وراءه من بلاد السودان الغربى فى غانة وغير غانة . وفى سنة ٤٤٧ هـ/١٠٥٥ م كاتبهما فقهاء سجلماسة ودرعة جنوبى المغرب الأقصى وصلحائهما كى ينقذا البلاد مما فيها من المنكرات ومن ظلم الولاة والحكام ، فاتجها بجيش جرار إليهم ، وتم لهما النصر ، وأزالا ما بالبلدتين من المنكرات وأسقطا ما كان بهما من المغارم والمكوس ، وجعلا عليهما عاملا أو واليا من لمتونة ، وعادا إلى صحراء موريتانيا وإلى جهاد الوثنيين فى بلاد السودان ، وتوفى الأمير يحيى بن عمر فى شهر المحرم سنة ٤٤٨ هـ/١٠٥٦ م وقدم الفقيه عبد الله بن ياسين أخاه أبا بكر بن عمر اللمتونى مكانه وقلده أمر الحرب .

وكان أبو بكر بن عمر بطلا مغوارا ، وكان صالحا متينا الدين متورعا ، وسرعان ما تقدم بجيشه من آدرار وحصنى آزكى وأودغست فى شهر ربيع الثانى سنة ثمان وأربعين وأربعمائة إلى بلاد السوس جنوبى المغرب الأقصى ، وأخذ يستولى على بلداتها وقضى فيها على قوم من الروافض يقال لهم البجلية نسبة إلى عبد الله البجلى الرافضى ، وكان قدم إلى السوس حين قدم عبيد الله المهدي الشيعى الإسماعيلى إلى إفريقيا ، وأشاع به مذهبه الرافضى ، وأخذت أجيال متعاقبة تتوارثه هناك إلى أن قاتلهم أبو بكر بن عمر وعبد الله بن ياسين وقتل منهم خلق كثير ، ورجع من بقى منهم إلى السنة ورأى الجماعة . وتلك أولى حسنات أبى بكر بن عمر والشيخ عبد الله بن ياسين فى المغرب الأقصى ، وأخذوا يتغلغلان فيه شمالا واستوليا على أغمات وإقليم حاحة سنة ٤٤٩ هـ / ١٠٥٧ م كما استوليا على تادلة وإقليم دكالة ، وعرفا أن بساحلها على المحيط وساحل إقليم تامسة قبائل برغواطة التى خرج بها عن جادة الدين الخفيف متنبهون ابتدعوا لهم شريعة ضالة كافرة - وتعاقبوا فيهم من قديم ، فقصدوا إليها فى مدينة أسفى على المحيط بإقليم دكالة وفى مدن سلا وآزمور وآفة ( الدار البيضاء ) فى ساحل إقليم تامسة ، وأخذوا ينازلونها منازل ضارية ، وفى بعض المنازلات والوقائع استشهد الشيخ العظيم عبد الله بن ياسين سنة ٤٥١ هـ / ١٠٥٩ م ، وبنى مسجد على قبره . ومضى أبو بكر بن عمر يجاهد برغواطة ، حتى استأصل شأفتها ومحا دعوتها من المغرب الأقصى إلى غير رجعة . وتلك حسنة كبرى ثانية لأبى بكر بن عمر وصنهاجة موريتانيا . وبلغه سنة ٤٥٣ هـ / ١٠٦١ م أن خلافا شديدا نشب فى صحراء موريتانيا بين قبيلتى لتونة ومسوفة ، وخشى افتراق الكلمة ، فخرج إليهما واستعمل على المغرب الأقصى ابن عمه يوسف بن تاشفين . ومنذ ذلك الحين انقسمت دولة المرابطين قسمين : قسما شماليا وقسما جنوبيا ، وقاد القسم الشمالى يوسف بن تاشفين ، وسرعان ما أسس فى سنة ٤٥٤ هـ / ١٠٦٢ م عاصمة دولته : مراکش ، وفى سنة ٤٧٤ هـ / ١٠٨١ م استولى على مدينة تلمسان الجزائرية من أيدي بنى يعلى الخزرين ، وتوغّل شريقها حتى مدينة الجزائر . واستصرخه بعض أمراء الطوائف فى الأندلس ، كى ينقذهم من براثن الإسبان الشماليين ، فجاز إليهم زقاق جبل طارق بجموع صنهاجة الصحراء الموريتانية ، وانتصر على الإسبان فى موقعة الزلاقة انتصارا حاسما سنة ٤٧٩ هـ / ١٠٨٥ م ورأى من الضرورى القضاء على أمراء الطوائف حتى تعود إلى الأندلس وحدثها إزاء الأعداء المترصين . وهذا الانتصار العظيم يعد حسنة كبرى ثالثة تضاف إلى صنهاجة الصحراء الموريتانية .

والقسم الجنوبى لدولة المرابطين ظل يقوده البطل المجاهد العظيم أبو بكر بن عمر الذى استطاع نشر الإسلام فى جميع أرجاء إفريقيا المدارية حتى أبواب إفريقيا الاستوائية وسياجها الضخم من الغابات الكثيفة ، وقد بدأ بالتكرور ومنطقة نهر السنغال الأدنى ، وانضموا إلى

جيشه فى حماس بالغ لنشر الإسلام فى ربوع السودان ، واستطاع الاستيلاء على غانة ونشر الإسلام فى أنحائها ، ويقال إن أميرها السونكى أعلن إسلامه وأسلم معه كثيرون . وبالمثل نشر الإسلام فى أرجاء مالى وأرجاء صنغى فى حوض النيجر الأوسط ، وحققا كل تلك البلدان كان قد دخلها الإسلام على أيدي التجار والقبائل الصنهاجية قبل أبى بكر بن عمر ، ولكن كانت كثرة أهلها ما عدا التكرور وثنية ، أما أبو بكر بن عمر فإنه أحاطها ببلادا وشعوبا إسلامية إلى اليوم وإلى أهد الآبين . وكل ذلك بفضل هذا البطل الصحراوى الموريتانى المخلص لدينه الذى كان يحكم كل هذه الأقطار من منطقة الأدرار فى موريتانيا متخذًا ازكى وأودغست قاعدتين كبيرتين لحمالاته الحربية جنوبا وشرقا . وكل ذلك بحسب له ولصنهاجة موريتانيا كما بحسب لها ما أدته من خدمات جلّى فى الأندلس وحماتها للإسلام هناك ضد أعدائه من نصارى الإاسبان . وطبعى أن تسيطر صنهاجة موريتانيا فى أثناء ذلك على طرق التجارة الرئيسية بين المغرب الأقصى وإفريقيا المدارية . واستشهد البطل العظيم أبو بكر بن عمر سنة ٤٨٠ هـ / ١٠٨٧ م برمية سهم مسموم فى عودة له إلى الأدرار من غزوة مظفرة بعد أن أدى للإسلام خدمات جلّى وسّع بها داره الإفريقية وعالمه الضخم .

وأبو بكر - دون ريب - هو صاحب الفضل فى أن جعل كل الشعوب الإفريقية التى استولى عليها شعوبا إسلامية ، ودخلت إليها مع الإسلام اللغة العربية ، وظلت لغة العبادة والثقافة والتجارة إلى اليوم ، ولم يستطع الاستعمار إزاحتها عن مكانتها . وعادت هذه الشعوب إلى الاستقلال عن دولة المرابطين وصنهاجة موريتانيا بعد وفاة أبى بكر سنة ٤٨٠ هـ / ١٠٨٧ م ، وازدهرت من بينها مملكة غانة وظلت صاحبة السيادة والنفوذ فى كل البلاد والأراضى الواقعة بين نهر النيجر والمحيط الأطلسى وتبعها الشطر الجنوبى من موريتانيا ومدينة أودغست ونيمة وولاته ، وانتسب حكامها - كما يقول الإدريسى - إلى الحسن بن على بن أبى طالب . وكانت قبيلة الصوصو تنزل جنوبيها وتخضع لها وتدفع إليها الجزية إذ كانت وثنية ، ومازالت تقوى حتى استطاعت القضاء على غانة والاستيلاء على عاصمتها كومبى صالح شمالى ياماكو عاصمة مالى الحديثة سنة ٦٠٠ هـ / ١٢٠٣ م وفرّ من العاصمة فريق من المسلمين مع الشيخ إسماعيل إلى مدينة ولاته فى الجنوب الشرقى لموريتانيا وأصبحت من أهم المراكز التجارية فى إفريقية الغربية . وبعد نحو ثلاثين عاما استطاع مارى جاطة بطل دولة مالى القومى وأهم حكامها أن يغزو بلاد الصوصو ويقضى عليهم . وامتدت دولته حتى شملت حوض نهر السنغال ونهر غينيا ومعظم حوض النيجر الأوسط والأعلى ، وفى أوائل عهد أحد أحفاده وهو منسا سليمان ( ٧٥٣ هـ / ١٣٥٢ م - ٧٦٠ هـ / ١٣٥٩ م ) قام ابن بطوطة برحلته إلى السودان ، وكانت أول مدينة نزل بها فى موريتانيا مدينة تغازى ، ومر بنا حديثه عن مناجم الملح بها ، وعجب

من انخفاض ثمنه في موطنه وارتفاعه في بلاد السودان ، وكأنه لم يكن يعرف شدة حاجتهم إليه بسبب الحرارة القاسية في ديارهم إذ يحفظ الماء في الجسم فلا يتبخّر سريعا ، وقال إن من يحفرون عليه عبيد قبيلة مسوفة الصنهاجية . ونزل مدينة ولانة ، ويذكر أن أكثر أهلها من قبيلة مسوفة ، وأنها كانت تتبع حينئذ سلطان مالي ، وأغلب الظن أن تبعيتها لمالي منذ عهد ماري جاطة ( ٦٢٨ هـ / ١٢٣٠ م - ٦٥٢ هـ / ١٢٥٥ م ) الذي وسّع حدود دولته - كما أسلفنا - إلى أقصى حد جنوبا وشرقا وغربا وكانت « ولانته » تابعة لغانة ومثلها مدينتا نيمة وأردغست ، فطبعي أن تدين جميعا له ولمالى بعده وحكامها التاليين . ويذكر ابن بطوطة عن ولانته أنها شديدة الحر وبها يسير نخيلات يزرعون في ظلها البطيخ ، ولحم الضان بها كثير وثياب أهلها ثياب مصرية حسان ، ويقول إنهم مسلمون يحافظون على الصلوات ومثلهم نساؤهم ولهن جمال فائق ، ويذكر أنه أقام بها نحو خمسين يوما وأن أهلها أكرمواه وفي مقدمتهم قاضيا وأخ له مدرس . ولا نعود نسمع عن ولانته في عهد دولة مالي ، وكانت قد أخذت في الضعف بينما أخذت صنفي في حوض النيجر الأوسط شرقي السنغال وغمبيا تقوى ، ولم تلبث أن استقلت عن مالي ، ثم أخذت تزداد قوة تدريجا في القرن التاسع الهجري ، وبلغت غاية قوتها في عهد أسرة إسكيا واستولى « سنّ على » ملكها على تمبكتو وأشعل فيها النيران سنة ٨٧٣ هـ / ١٤٦٨ م مما جعل فقهاءها وفي مقدمتهم عمر بن محمد أقيمت يفرّون منها إلى ولانته واستولت هذه الأسرة على كثير من بلدان مالي ومدّت سلطانها ونفوذها إلى ولانته وإقليمها في موريتانيا ، وكان حكامها بعد سن على متمسكين بالإسلام ، مما زاد في تعلق الناس بهم ، وخاصة بمحمد بن أبي بكر ( ٨٩٩ هـ / ١٤٩٣ م - ٩٣٥ هـ / ١٥٢٨ م ) الذي اتخذ مدينة تمبكتو على النيجر عاصمة له ، واستكثر من بناء المساجد والزوايا ، واستقدم لها الفقهاء والعلماء لتعليم الناس القرآن والفقه وأمور دينهم ، وزار الحسن الوزان ولانته في عهده وقال إنها تابعة للملك تمبكتو وتدفع له ضريبة محددة ، ومر بنا حديثه عنها في جغرافية موريتانيا ، وقال إن كل تنظيم مدني مجهول في هذه المنطقة ، فلا قضاة ولا حكومة منظمة ، إذ كانت قبيلة مسوفة فيها لا تزال تعيش معيشة قبيلة .

ويبدو أن دولة صنفي لم تكف بولاء ولانته وأنها حاولت الاستيلاء على تغازي وما بها من مناجم الملح ، بل يقال إنها استولت عليها فعلا مما أغضب أحمد المنصور الذهبي سلطان الدولة السعدية في المغرب الأقصى ( ٩٨٦-١٠١٢ هـ ) فصمم على منازلها ، وأرسل إليها حملة سنة ٩٩٧ هـ / ١٥٧٩ م في عهد حاكمها إسكيا داود وتغلغلت الحملة في بلاد السودان واضطر إسكيا داود أن يقبل التنازل عما بيده من بلاد موريتانيا والقبائل الصنهاجية ، وعادت الحملة بغنائم كثيرة وسمع بالحملة صاحب برنو شرقي صنفي وكأنما خشى على بلاده من الجيش السعدي ، فأرسل في أواخر سنة ١٠٠٠ هـ / ١٥٨٢ م بيعته للمنصور الذهبي مع هدية كبيرة

من فتيان العبيد والإماء ، وصمم المنصور على غزو صغرى واحتلال بلادها لما فيها من كنوز الذهب ومعادنه ، وأعدَّ لذلك جيشا جرارا بقيادة جوذر الأندلسى ، والتقى الجيش بعد رحلة شاقة مضية فى فيافى الصحراء وقطارها بجيش إسكيا إسحق بن داود واستطاع هزيمته فى موقعة فوندى شمالى جاور ، ودخل المدينة فوجد أهلها غادروها واتجه جوذر إلى تومبكتو العاصمة ، وأحس بخيبة أمل شديدة حين قيل له إن مناجم الذهب التى يقصدها لا تزال بعيدة جدا بُعد المغرب الأقصى عن تمبكتو . وأرسل بذلك إلى المنصور فغضب وعزله عن قيادة الجيش وأرسل مكانه محمود زرجون ، ويقال إنهم استولوا من قصور إسكيا إسحق بن داود على ما لا يحصى من الخلى والذهب وعاد الجيش محملا بغير قليل منهما ، مما أتاح للمنصور أن يبنى قصره « البديع » ويثر منه الكثير على الناس ، ولذلك سعى المنصور الذهبى .

وأهم ما عاد على موريتانيا من انتصار هذا الجيش المغربى الضخم أنه رفع يد دولة صغرى عن البلدان الموريتانية التى دانت لها ، وأكثر من ذلك أهمية أن المنصور رأى أن يرسل إلى بلاد موريتانيا والسودان رجلا كثيرا وخيلا من عرب المعقل وجشم أهل الشوكة والنجدة لحراسة ما استولى عليه جيشه من تلك الديار . ولبَّاه من عرب المعقل قبيلة حسان وغيرها ، ونزلت عشائر منها فى شنقيط ، وإليها ينسب إدوعيش سكان تكانت وأبناء أحمد من دامان والترارزة فى الجنوب الغربى من موريتانيا ، وينسب إليها أيضا البرايش سكان تيشيت وحكامها والأوداية ونزلوا بين وادان وولاته وكان قبائل حسان تغلغلت فى كل بلدان موريتانيا ومناطقها ، وكان ذلك كسبا كبيرا لموريتانيا لأنهم عرب ، وأخذت تتعرب من حينئذ أى من أول القرن العاشر الهجرى/ السادس عشر الميلادى .

ومع أنهم استقروا فى مدن موريتانيا مع إخوانهم من القبائل الصنهاجية ، ولم يعدوا يسكنون فى خيام ، إنما يسكنون فى أكواخ ، ظلوا يعنون بترية الإبل والخيل ، وظلوا يقودون حروبا مستمرة ، ويتسع أحمد بن الأمين الشنقيطى فى عرضها بكتابه الوسيط وتراجم أدياء شنقيط ، ونراه يقول عن حروب قبائل حسان إن الحرب أصل معهود بينهم فترى قبائلهم أو أقسامهم الكبيرة يحارب بعضها بعضا كما وقع بين إدوعيش سكان تكانت والترارزة سكان الجنوب الغربى إلى حدود السنغال ، وكما وقع بين إدوعيش وأبناء أحمد من دامان جيرانهم وكما وقع بين أحياء من عثمان سكان أدرار وإدوعيش ، وكما وقع بين الترارزة وأبناء عمومتهم البراكنة ، ويعرض لحروب الترارزة ، فيقول فى فاتحة عرضه : ما وقع بين الترارزة مع غيرهم لا يذكر ، بالنسبة لما وقع بين بعضهم وبعض ، وما يزال ابن الأمين الشنقيطى يعرض علينا حروب الموريتانيين وكيف أنها كانت تبدأ ضعيفة ، ثم تقوى وتستحكم بمرور الزمن . ولم تنج منها بلدة موريتانية ، ولا أفلت منها راغب فيها أوكاره ، وقد غلبت على حياتهم منذ القرن

الحادى عشر الهجرى ، بل فى رأينا منذ القرن العاشر ونزول قبائل حسان بينهم . ولعل ذلك ما حال فى موريتانيا بينها وبين قيام دولة فيها ، إذ لم نعمها وحدة بين قبائلها وسكان مدينتها قبل القرن العشرين ، وكان لمدينة شنقيط فيها زعامة ولكنها لم تكن زعامة سياسية إنما كانت زعامة ثقافية . وظلت البلاد - منذ المنصور الذهبى - تستشعر شيئا من الولاء لدولة السعديين فى المغرب الأقصى ثم لدولة العلويين . ومازالت حياتها على النحو الذى قدمناه إلى أن داهمتها القوات الفرنسية سنة ١٩٠٣ للميلاد ووضعتها تحت الحماية ، وفى سنة ١٩٢٠ جعلتها مستعمرة فرنسية ، ومازال شعبها يجاهد الفرنسيين حتى أزاحهم عن دياره سنة ١٩٨٠ وأعلن قيام جمهورية موريتانية إسلامية فى البلاد .

## الفصل الثاني

### المجتمع والثقافة

١

المجتمع<sup>(١)</sup>

(أ) صنهاجة وقبائل المعقل العربية

كان المجتمع في موريتانيا يتألف من قبائل صنهاجة وعبيدهم من السودان ، وكان هؤلاء العبيد يقومون لهم بكثير من الأعمال في الزراعة وحفر الآبار وسقى المزروعات وكذلك في المراعى ورعى الأنعام ، ويقول ابن بطوطة في رحلته إلى السودان ونزوله بتغازى بلدة مناجم الملح إن عبيد قبيلة مسوفة الصنهاجية هم الذين يقومون باستخراجه من الأرض وإعداده لحمله إلى بلاد السودان . ونزل موريتانيا في أواخر القرن التاسع وأوائل العاشر الهجرى كثيرون من قبائل المعقل الذين كانوا ينزلون بالقرب من مدينتى سجلماسة والدرعة فى المغرب الأقصى وخاصة قبائل حسان ، دفعهم المنصور الذهبى إلى الجنوب ليحموا فتوحه فى بلاد السودان واستقر كثيرون منهم فى موريتانيا مفضلين لها على بلاد السودان ، لأنها بسطحها الرملى الصحراوى تشبه البوادرى التى كانوا يستوطنونها جنوبى المغرب الأقصى . وأخذ كثيرون منهم يؤثرون أرض المراعى يرعون فيها أنعامهم متنقلين فيها وراء الكلال ، كما فى أرض تيرس الواسعة الواقعة غربى منطقة آدرار والممتدة جنوبا وغربا حتى المحيط الأطلسى ، وهى منطقة شديدة الخصوبة ، وهى قليلة المطر ، غير أنه قد يكثر فيها أحيانا بل ربما توالى ذلك فى سنوات متعاقبة ، ويسموننا سنوات الخصب ، وتسمن فيها أنعامهم وإبلهم ، حتى ليرفعون عن ضرورعهم ما يشدونها به من نسيج الجبال ، خوفا عليها من أن تفسدها كثرة اللبن ولذلك يتركون الفُصْلان ترضع أمهاتها متى شاءت ودائما يتفقد الرعاة الضروع حلبها ، وكثيرا ما يلقون باللبن على الأرض لعدم الحاجة إليه . ويكبر الفصيل سريعا حتى ليصبح صالحا للركوب فى سنة ولادته ، ويسبب هذا الخصب وغزارة المراعى فيه ربما ولدت الناقة لستين ونحوها ، مما جعل الإبل فيها كثيرة ، حتى ليقولون إنها تنبت الإبل ، كما ينبت المطر النبات . وطبيعى

(١) انظر فى المجتمع الموريتانى كتاب وصف إفريقيا الوسيط فى تراجم أدباء شنقيط لأحمد بن الأمين الشنقيطى .

(١) انظر فى المجتمع الموريتانى كتاب وصف إفريقيا للحسن الوزان فى مواضع مختلفة وكذلك كتاب

أن تكثر المراعى فى صحراء موريتانيا ، وكما نلقاها فى تبرس نلقاها فى منطقة تيشيت وفى الصحارى الممتدة بين وادان شرقى شنقيط وبين ولاته فى الجنوب الشرقى وأيضاً فى منطقة الحوض غربها .

### (ب) الزروع والمراعى

وأقام كثيرون من قبائل المعقل وخاصة قبائل حسان والبرابيش وأودية فى مدن موريتانيا ، وكانت قديماً تشتمل على مسجد أو مساجد تتألف من أكواخ تبنى حول آبار فى وديان أشبه بواحات صغيرة . وأهم ما يزرعون فيها النخل ليقتاتوا من تمره ، وعادة يزرعون تحته الشعير وقد يزرعون الدخن والقمح ، ويقول الحسن الوزان عن تيشيت إنه يوجد قربها رقعة صغيرة صالحة للزراعة ، زرعها أهلها بالنخيل ، ورقعة أخرى يزرعونها شعيراً ودخنا يقيمون بها أودهم ، ويقول عن وادان إنه لا ينبت فيها سوى النخيل ، ويحاول أهلها الصيد للحيوانات الوحشية مثل الوعل والنعام ، وبها بعض الماعز ، ويقول عن ولاته إن أرضها تنبت الدخن والذرة . ويقول أحمد بن الأمين عن شنقيط إن بها نخلاً كثيراً ، وبعض جبالها مزارع يزرع فيها القمح والشعير والدخن واللوبيا ، وأهل منطقة أدرار عامة يزرعون القمح والشعير تحت النخل ، ويزرعون فى الأودية والرمال نوعاً يسمى فندى وهو بطيخ أبيض اللون وأخضر من أجود البطيخ ، ويصنعون من بذر الأبيض دقيقاً يخلطونه بدقيق الدخن ويجعلون منه شبه العصيدة ، ويقول الشنقيطى عن مدينة تيججكة إنها على ضفة واد كبير النخل وفى شمالها مزارع للفندى والدخن ، ويقول عن تكانت إنها كثيرة الأشجار الصحراوية ويعد أشجارها . وتلك هى صورة الزروع فى موريتانيا ، وليس منها شئ يصدر إنما هى لمعيشة أهلها وما يسد حاجتهم من الطعام . وأهل المدن والزروع بذلك أحسن حالاً من أهل المراعى والأنعام ، إذ ليس من عاداتهم أكل الخبز أو هم غالباً لا يعرفونه ، إنما يعرفون حليب نوقهم ، ويقول الشنقيطى ربما يبلغ أحد الرعاة ستين عاماً ولم يعرف الخبز ولا العصيدة فضلاً عن أكلهما ، إنما يشرب اللبن أو يأكل التمر أو بعض لحوم الأنعام التى يربعاها .

### (ج) التجارة

من قديم أهم من الزروع والمراعى عند أهل موريتانيا التجارة مع أهل السودان . وأهم ما يتجرون به معهم الملح الذى كانوا يستخرجونه من مناجم تغازى حتى القرن العاشر الهجرى ، وأخذوا - فيما بعد - يستخرجونه من آجل شرقى وادان ، ويكاد كل أهل موريتانيا يتجرون فيه لكثرة العائد منه ، ويتجر فيه أهل شنقيط ووادان وتيججكة وولاته والحوض وتكانت ، ويكاد يباع فى أعماق السودان بوزنه ذهباً . ومر بنا قول ابن بطوطة فى زمنه إن الحمل منه أى حمل البعير وهو - كما قال - لوحان بعشرة مثاقيل من الذهب فى تغازى ، ووجده فى مال

بياع بثلاثين مثقالا وقال إنه قد يباع فى مالى بأربعين مثقالا ، ومالى قرية من تغازى فما بالناس بما يباع به فى أراضى السودان البعيدة . وقال الشنقيطى إن كل ما عند أهل السودان من الخيل والثياب والزرور والعبيد كانوا يبعونه - أو يبادلونه - بالملح . ومما يأتى به بائع الملح من هناك القماش المعروف بالأكحال وأردية يسمونها « ديماس وديسة » وبنائق والنول المعروف عند المصريين بفول السودان وعند أهل الشام بالفستق وعند أهل الحجاز باللوز الهندى . وهذه هى التجارة العامة فى موريتانيا وتليها التجارة فى الصمغ ، ويجنيه أهل القبلة من الأنحاء التى يكثر فيها القناد أو الشوك وكذلك أهل الحوض . ولم يكن أهل موريتانيا يعرفون النقود فكانوا يتبادلون فى الكثير الأكثر القماش الذى يحتاجونه لملابسهم بالغنم ، وكان الثلاثون ذراعا من القماش تسمى باسم البيصة ، وهى الوحدة التى يرجعون إليها فى ثمن الأنعام والعبيد فيقولون مثلا هل تبيع هذا العبد أو ذلك البعير أو هذا الثور بعشر بيصات أو يقولون مثلا بكم أشتري بالبيصة من الغنم فيقال ثلاث أو أربع ونحو ذلك . وإذا كان البيع أو التبادل بين الأنعام بعضها وبعض فيقولون مثلا ثمن هذا البعير أربعة عمجول من البقر أو ثمانية من الغنم .

وليس فى موريتانيا سوى صناعات أولية بسيطة ، وكان فيها حدادون بسطاء يصنعون الفئوس والخناجر وآلات الحراثة ، وكان بها دباغون يديغون الفراء وجلود الأنعام ، وبعض النساء كن يحنطن ما يصنع من الجلود ، وكان بينهم من يصنع أواني الخشب ، وكل تلك صناعات يدوية أولية .

### ( د ) حياة يدوية

لم يكن فى موريتانيا حكومات منظمة ، فقد كانوا لا يزالون يعيشون معيشة بدوية فى المدن التى أقاموها وسكنوها . ومثل قبائل البدو كان هناك سادة وشيوخ لعشائرتهم يطيعونهم ، وكانت القبيلة أو البلدة تتخذ لها قاضيا ترجع إليه فى قضاياها ، وكانوا لا يرجعون إليه إلا فى المسائل الكبرى أو القضايا الكبرى كما إذا حدث قتل فكانوا يلجئون إليه للقصاص ، وحتى فى هذه القضية الكبرى كان سادة القبائل أو كما يسميهم الشنقيطى أمراء القبائل لا ينفذون الحكم ، أو يطيلون التنفيذ ليأخذوا الرشوة ، ويقول : « ربما أوعز الأمير إلى القاضى ليحكم بما يهوى » . وفى أحوال كثيرة لم يكن هناك قاض فكان المتنازعان يحتكمان إلى شخص ليستمع حججهما ، وقد يطلب من المدعى الشهود ، وتشرط العدالة فى الشاهد ، وإذا حكم رضى المدعى لحكمه إلا إذا أفتاه أحد العلماء بالخطأ فى الحكم ، وربما ظلت القضية سنوات حتى يتفق رأى العلماء فيها .

وكان الزواج عندهم - ولا يزال - على مذهب الإمام مالك لأنهم مالكية مثل بقية بلدان المغرب ، ومنهم من يأخذ الصداق كاملا ومنهم من يكتفى بنصفه ، ومنهم من لا يأخذه البتة ،

والجهاز بحسب العرف . وعلى وليّ الزوجة أن يقيم قبل بناء الزوج بها وليمة ، وتُحْمَلُ منها موائد إلى أقارب الزوج ، وتبعث الزوجة بتلك الموائد في كل عيد ، وتبعث نساؤهم بموائد مماثلة إلى الزوجة ، لتسود المودة والمحبة بينهم جميعا .

٢

## الثقافة<sup>(١)</sup>

### ( أ ) نشاط ديني تعليمي كبير

من المعروف أن الإسلام لم يدخل شعبا ولا بلداً إلا دفعهما دفعا إلى العلم والتعلم ، وقد كانت أول آيات نزلت منه على الرسول ﷺ ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۝ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۝ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ وآيات قرآنية أخرى كثيرة تحض على العلم كما تحض عليه أحاديث نبوية متعددة .

ومعنى ذلك أن الإسلام والعلم متلازمان ، وأن العلم لا ينفك عنه أبدا ، وكان المسلمون الأولون بمجرد أن ينتحوا بلدا يقيمون فيه مسجدا ، ويقيمون بجانب المسجد كتابا لتحفيظ القرآن الكريم للناشئة ، حتى إذا حفظ الناشئ القرآن ورتلّه أو جودّه تحوّل إلى حلقة أحد العلماء في المساجد يأخذ عنه الفقه والحديث والعلوم الإسلامية . كما يأخذ عنه العربية وقواعدها وآدابها من شعر ونثر . وكما يحدث ذلك في المدن يحدث في أحياء البدو وبصور مختلفة ، هيأت دائما كما هيأت صور التعليم في المدن لظهور فقهاء يفقهون الدين الإسلامي وتعاليمه وما فرض من الصلاة والصيام والزكاة والحج وظهور نخاة ولغويين يحسنون العربية وقواعدها وتعليمها للناشئة .

وكل ذلك حدث في موريتانيا مع انتشار الإسلام في بلداتها وبين قبائلها البدوية منذ القرنين الثالث والرابع حين أصبحت هناك قبائل تعمل على نشر الدين الحنيف ، واتسع ذلك في القرن الخامس الهجري حين نزل الشيخ عبد الله بن ياسين في قبائل المتونة وأخواتها الصحراويات بموريتانيا : مسوفة وكدالة وجزولة ولمطة ، وسمّى أتباعه هناك المرابطين أى المجاهدين الذين رصدوا أنفسهم للجهاد في سبيل الله وإعلاء كلمته ودينه ، ومضى مع يحيى بن عمر اللمتوني ثم مع أخيه أبي بكر يدعو أهل السودان الغربي - كما مرّ بنا - إلى الإسلام ،

(١) الثقافة العربية الإسلامية في كتاب الشعر والشعراء في موريتانيا للدكتور محمد المختار ولد إياه وكذلك كتابه دراسات في تاريخ التشريع الإسلامى في موريتانيا .

(١) انظر في ثقافة موريتانيا وصف إفريقيا للحسن الوزان في مواضع مختلفة من كتابه ، وراجع كتاب الوسيط في تراجم أدياء شقيق سوا في التراجم أو في حديثه عن التعليم والعلماء والطلبة ، وبالمثل راجع فصل مظاهر

وتوفى - كما أسلفنا - فى جهاد برغواطة الضالة فى المغرب الأقصى وقضى عليها قضاء مبرما أبو بكر، وعاد بشطر كبير من جيشه إلى قواعده بمنطقة أدرار فى موريتانيا وأخذ يعد حملاته إلى أنحاء السودان الغربى، ودان له ودخل كثيرون من أهله فى الإسلام وتحولت كثرة من جيشه، يعلمون أهل السودان الغربى شئون دينهم، ويحفظونهم القرآن الكريم.

وذلك كان فضلا عظيما لصنهاجة موريتانيا، وعاد كثيرون منهم إلى موريتانيا سوى من كانوا لا يزالون بها، وفى كل بلدة وفى كل حى من أحياء القبائل البدوية كانت الناشئة تدرى - دوى النحل - بأى القرآن الكريم، وكانوا - بعد ترتيبه أو تجويده - يلتحقون ببعض العلماء، ولكن ليس فى أيدينا شىء سجلوه عن التعليم فى ديارهم، إنما تلتقط - منذ القرن السادس الهجرى - أخبار العلماء وأسمائهم التقاطا، كأن يقال إن غزو قبائل الصوصو لعاصمة غانة : كومبي صالح سنة ٦٠٠ هـ/١٢٠٤ م جعل الشيخ إسماعيل وبعض علمائها يفرّون منها مع فريق من المسلمين إلى ولاته، مما أحالها مركزا تجاريا مهما وأحدث بها حركة علمية نشيطة، ولا نعود نسمع عن ولاته أخبارا، حتى إذا كانت سنة ٧٥٣ هـ/١٣٥٢ م زارها ابن بطوطة ونوه بإكرام أهلها وقاضيه له، ونمضى إلى سنة ٨٧٣ هـ/١٤٦٨ م فيغزوسن على ملك صغى تمبكتو ويشعل فيها النيران ويقتل خلقا كثيرا، ويرحل منها فقهاؤها إلى مدينة ولاته وفى مقدمتهم عمر بن محمد أقيت وأولاده وكلهم أصبحوا فقهاء، ولقى بها فقيها ومحدثها الإمام الزمورى، وأجازه كتاب الشفاء للقاضى عياض السبتي المتوفى سنة ٥٤٤ هـ/١١٤٩ م، وسمعه منه معه وأجازه صهره الفقيه المختار الحوى المتوفى سنة ٩٢٢ هـ/١٥١٦ م. ويذكر الحفناوى فى كتابه تعريف الخلف برجال السلف فقيها من فقهاؤها هو عبد الله بن عمر المسوفى المولود سنة ٨٦٦ هـ/١٤٦١ م والمتوفى سنة ٩٢٩ هـ/١٥٢٢ م ويقول إنه كان غاية فى الزهد والورع. وكان يعاصره فى مدينة وادان الفقيه محمد بن أحمد بن أبى بكر الوادانى وله شرح على مختصر خليل فى مجلدين سماه « موهوب الجليل بشرح خليل » وكان حيا سنة ٩٣٣ هـ/١٥٢٦ م. ويذكرون عن مؤسس مدينة تشيت فى القرن السادس الهجرى الشريف عبد المؤمن أنه كان تلميذا للقاضى عياض ولا بد أنه أسس فيها حركة علمية على عادة الفقهاء، غير أنه ليس بين أيدينا شىء عنها وكذلك عن مثيلاتها فى شنقيط وغيرها من مدن موريتانيا فى القرن العاشر الهجرى وما قبله من القرون.

### (ب) التعليم والطلاب والشيخوخ

الأخبار عن الحركة العلمية فى موريتانيا إنما تأخذ فى النمو منذ القرن العاشر الهجرى حين تم تعريبها بفضل قبائل المعقل العربية : حسان وغيرها، ويسوق الشنقيطى فى كتابه تراجم أدياء شنقيط وكذلك الدكتور محمد المختار ولد إياه فى كتاباته أخبارا مختلفة عن تلك الحركة،

فمن ذلك أنهم كانوا يختبرون الصبي إذا بلغ خمس سنوات من عمره في حفظ الأعداد الأولى من واحد إلى عشرة فإذا تعلمها وذكرها سريعا أخذوا في تعليمه الحروف الأبجدية ثم يعلمونه الحركات : الضمة أو الرفع والفتحة أو النصب والكسرة أو الجر ، ثم يحفظونه القرآن الكريم ، ويذكر الشنقيطي أن كثرة معلمى الصبية فى هذه الدورة كُنَّ من النساء ، مما يدل على أن النساء فى موريتانيا كن يتعلمن حتى يصبحن صالحات لتعليم الصبية . ويقول الحسن الوزان فى حديثه عن مدينة تشيت إن « النساء هن اللائى يتعلمن ويقمن بدور معلمات المدرسة للفتيات والفتيان » وبعد حفظ الصبي القرآن وتعليمه الكتابة يبدأ فى الالتحاق بشيخ ليتعلم على يديه بعض العلوم . والبيئات تختلف فى نوع العلوم التى يبدأ الصبي بتعلمها فى سن الثانية عشرة أو الثالثة عشرة ، بعد حفظ القرآن فأهل منطقتى آدرار وتكانت ومن حذا حذوهما يبدأون بتعليم الفقه على مذهب الإمام مالك فى متن مختصر لعبد الرحمن الأخصرى الجزائرى ومنظومة لابن عاشر فى الفقه ثم ينقلونه إلى دراسة رسالة ابن أبى زيد رئيس المالكية فى القيروان والبلاد المغربية ، ثم يدرس مختصر خليل بن إسحق المالكى المصرى وبعض شروحه . وبلدان أخرى يبدأ فيها الناشء بدراسة بعض دواوين العرب والعقائد الأشعرية وتآليف السنوسى الجزائرى فى علم التوحيد ثم يقرءونه الفقه والنحو . وبلدان تبدأ بتعليم علوم البلاغة والمنطق .

ولم تكن هناك حكومة أو جهات تنفق على الطلبة والعلماء ، وكان الطلبة يؤمنون - فى أحيان كثيرة - علماء بعيدين عن أوطانهم ، فكيف يتعيش الطالب الموريتانى إذن ، يقول الشنقيطي إن أكثر الطلاب يأخذ الواحد منهم بقرة حلوبا أو بقرتين وربما ثلاثا ، وإذا كان الشيخ صاحب إبل أخذ الطالب ناقة أو ناقتين وربما ثلاثا ، ويتجمع الطلاب ساعة الحلب ويتناول كل منهم ما يكفيه من اللبن . ويتناوبون رعى بقرهم ونوقهم ، ويأخذ راعيها معه كتابه أو لوحه ، ويقرأ فى الكتاب أو يحفظ ما فى اللوح ، وبالمثل يتناوبون سقى نوقهم أو بقرهم . ومع هذه المشقة كان طلاب موريتانيا يقبلون على دروس العلماء الكبار . وكان العلماء - مثل الطلاب - لا يتفق عليهم أحد ما يستعينون به فى حياتهم ومعيشتهم ، ولم يكن أحد من الطلاب يعطيهم شيئا نظير تعلمه ، بل على العكس كانوا يعطون المحتاجين من الطلاب بعض ما ينفقونه . ولم يكن فى موريتانيا مدارس بالمعنى المعروف إنما كان فيها محاضر منتشرة فى مدنها ومراعيها من ضفاف نهر السنغال إلى الساقية الحمراء غربا وفى الحوض جنوبا وفى الصحارى الشرقية حيث ترى شيخا بدويا كسائر البدو متقشفا فى ملبسه بالمراعى وبالمثل فى المدن ، وترى أمام بيته أو خيمته طائفة من الشبان كثيرة أو قليلة تسكن تحت الشجر أو تحت عريش من الخشب ، ومنذ الضحى يلتفون حول الشيخ ، وقد يدعوهم إلى بيته أو يلتقى بهم فى مسجد ، وقد يلقي الدرس جالسا أو قائما ، وقد يلقيه خارج بيته والمسجد ماشيا ، وقد

يقرأ الطلاب نصا بعينه مع شيخهم . وقد يُقرئهم ويعلمهم أشتاتا ، وهو الغالب ، فالطالب يختار مادة قراءته حسب حاجته من فقه أو نحو أو بلاغة ، وترى الشيخ مثلا يدرس لعشرة من الطلاب ألفية ابن مالك وطالب يقرأ من أولها وثان من وسطها وثالث من أواخرها ويشرح لكل طالب ما يقرؤه ، وهكذا فى الفقه وغيره من العلوم . ومثلا ثانيا إذ يستمع الطلاب إلى شيخ يشرح نصا فى مختصر خليل فى الفقه ، إذا هو ينتقل إلى باب من ألفية ابن مالك ، ثم إلى درس فى علم التوحيد أو فى علم المنطق أو فى العروض ، وقد ينتقل من ذلك إلى شرح بعض أشعار الجاهليين أو الإسلاميين . وتعجب إذ ترى هذا الشيخ العالم يسوق فى الصباح بقرة إلى موضع للرعى ، والقدم على عاتقه يقطع به أعوادا من الشجر ليبنى بها بئرا ، ويذهب إليه ليرى المكلفين بالعمل فيه ، ويعود - بعد ذلك - ليدرس لتلاميذه طوال النهار ، حتى إذا انتهى من صلاة العشاء ونام الناس أخذ يعنى بتصنيف كتاب له أو بالقراءة فى بعض الأمهات والأصول من الكتب .

### (ج) أمهات الكتب والتون والشروح المتداولة

على سنة البلاد العربية جميعا حازت موريتانيا لنفسها كثيرا من أمهات الكتب ومتونها المشهورة وشروحا ، واعتمدوا فى كثير منها على أعمال الأندلسيين والمغاربة وبالمثل أعمال المصريين إذ كان بعض شباهها يتلقى العلم عن أساتذته فى البلاد المغربية والمصرية ، وطبعي أن يكثر الواردون منهم على علماء فاس وغيرها من البلاد المغربية . وكان منتشرا فى مكبات البلدان والقبائل فى القراءات كتاب التيسير فى القراءات السبع لأبى عمرو عثمان بن سعيد الدانى وقصيدة « حرز الأمانى فى القراءات » للشاطبى الضرير . القاسم بن فيره وهى ألف ومائة وسبعة وثلاثون بيتا ، ويقول ابن خلدون : « استوعب الشاطبى ما دوَّبه الدانى فى القراءات بقصيدته ، وعنى الناس بحفظها وتلقينها للولدان المتعلمين ، وجرى العمل على ذلك فى أمصار المغرب والأندلس » .

وكانوا يعتمدون فى التفسير كما يقول الدكتور محمد المختار - على كتاب التفسير الكبير لابن عطية الأندلسى قاضى المرية ، وهو من أهم الكتب فى التفسير وسماه الوجيز فى التفسير تواضعا وهو فى مجلدات ضخمة ، ويقول ابن خلدون إنه لخص فيه التفاسير المأثورة كلها وتحرى الأقرب منها إلى الصحة . وتداول تفسيره بعده أهل المغرب والأندلس . واعتمدوا أيضا على تفسير القرطبى المسمى « جامع أحكام القرآن والمبين لما تضمن من السنة وآى القرآن » وهو فى عشرين مجلدا سار فيه على نهج ابن عطية السنى .

وكانوا يتداولون فى الحديث النبوى كتب الصحاح الستة للبخارى ومسلم والترمذى وابن ماجه وأبى داود والنسائى ، ويقول الدكتور محمد المختار إن أهم محدث كانوا يعنون بكتبه

أبو الوليد الباجي الأندلسي ، وخاصة كتابه المنتقى فى شرح الموطأ وتخريجه لما فيه من الأحاديث ، ويذكر أن الموريتانيين عنوا عناية خاصة بكتابه وبشعره وأدبه .

وكانوا يعكفون فى الفقه المالكي على منظومة ابن عاشر ورسالة ابن أبى زيد القيروانى ومختصر خليل بن إسحق وشروحه ، وعنوا بدراسة كتابات أبى عمرو يوسف بن عبد البر الذى تعزز به المالكية وكتاباته فى الفقه المالكي وفى مقدمتها التمهيد والاستذكار وكتاباته التاريخية وفى مقدمتها الاستيعاب فى تراجم الصحابة ، وبالمثل عنوا فى الفقه المالكي بكتابات ابن رشد الفقيه الكبير جد ابن رشد الفيلاسوف وكتاباته الفقهية من مثل البيان والتحصيل ومقدماته على المدونة .

ومن كتب النحو التى كانوا يتداولونها متن الأجرومية لابن آجروم الصنهاجى ، وكان الأزهر فى مصر إلى عهد قريب يبدأ به دراسة النحو لطلابه ، وعنوا بألفية ابن مالك وشروحها وبكتابه لامية الأفعال ، وعنوا بألفية السيوطى المسماة الفريدة وبكتب نحوية مختلفة سيأتى ذكرها فى الترجمة لعلماء العربية .

وعنوا فى علم الكلام والتوحيد بالعقائد الأشعرية وكتابات السنوسى والجزائرية وإضاءة الدجئة للمقرئ ، وكانوا يقرءون متن السلم للأخضرى فى المنطق . ودرسوا شرح الأعلام الشتمرى للشعراء الستة : امرئ القيس والنابعة وزهير وطرفة وعنترة وعلقمة . وعرفوا أهم الكتب الأدبية ، وفى مقدمتها الأغاني لأبى الفرج الأصبهاني والأمالي لأبى على القالى والكامل للمبرد وزهر الآداب للحصرى وبهجة المجالس لابن عبد البر وخزانة الأدب للبغدادى كما عرفوا دواوين كثيرين من الشعراء على مر العصور .

وهذا الحشد من المؤلفات التى كانت متداولة فى موريتانيا ، والتى عنى بإحصائها الدكتور محمد المختار فى مقدمات كتابه : « الشعر والشعراء فى موريتانيا » يدل بوضوح على أن موريتانيا - وإن لم تقم على شئونها قبل العصر الحديث دولة تنظم ثقافتها وحياتها العلمية - فإنها استطاعت بفضل عنايتها بالعلوم الإسلامية أن تصبح ذات ثقافة علمية قيمة وأن يصبح لها علماء فى مختلف فروع العلوم الإسلامية والعربية .

#### ( د ) أعلام العلماء فى موريتانيا

نتوقف قليلا لعرض أعلام موريتانيا من العلماء ممن ترجم لهم الدكتور محمد المختار ترجمات مفصلة فى كتابه : « دراسات فى تاريخ التشريع الإسلامى فى موريتانيا » وسنعرضهم عرضاً تاريخياً موزعين على العلوم الإسلامية والعربية ونضم إليهم طائفة من العلماء المترجم لهم عند الشنقيطى فى القرن الثالث عشر الهجرى قبل العصر الحديث . ومن الصعب الدقة فى هذا

التوزيع لأن العلماء كانوا غالباً موسوعيين ، ولذلك كثيراً ما يقال عن العالم إنه فقيه محدث متكلم نحوي ، وتجار أي مجموعة من العلماء تضعه فيها ، أو يقال مثلاً إنه جامع لأنواع العلوم من تفسير وحديث وفقه وأصول ونحو ولغة ، ومع ذلك سنحاول هذا التوزيع لنجد على أن النشاط كان متسعاً في مختلف العلوم .

#### (هـ) القراء والمفسرون والمحدثون والفقهاء

أول من يلقانا من علمائهم قراء الناشئة ويعدون بالعشرات إن لم يكن بالمئات من مثل محمد بن أبي بكر من ولاته المتوفى في القرن الثاني عشر الهجري وكان ملازماً لإقراء الناشئة ، صوفى النزعة . ومن أئمة القراءات عبد الله بن أبي بكر التنواجيوى رحل إلى أحمد الحبيب اللمطى السجلماسى وقرأ عليه السبع وكان يدرس لطلابه الشاطبية ويفسرها لهم توفى سنة ١١٤٥ هـ/١٧٣٢ م ومن تلاميذه عمر بن أحمد الإيدليى كان قارئاً بالسبع ، توفى سنة ١١٥٢ هـ/١٧٣٩ م وظلت إمامة القراءات في بيت التنواجيويين واشتهر بالإمامة فيها الشيخ أحمد بن محمد التنواجيوى المتوفى سنة ١٢١٠ هـ/١٧٩٥ م وكانت أكثر عبادته إقراء القرآن ، وقد أخذ القراءات السبع عن محمد بن عبد الله التنواجيوى .

ويذكر كثيراً عن هذا العالم أو ذلك أنه كان يفسر القرآن الكريم بجانب ما كان يلقى على طلابه من دروس في الفقه أو في النحو أو في علم الكلام أو فيها جميعاً ، وكثيراً ما يُذكر مع المحدثين أنهم كانوا يعنون بتفسير الذكر الحكيم ، واشتهر منذ النصف الأول من القرن الحادى عشر الهجرى محمد بن سعيد اليدالى الديرمانى بتفسير قيم لكتاب الله العزيز في مجلدين سماه « الذهب الإبريز على كتاب الله العزيز » . ويلقانا بعده المختار الكنتى وتفسيره للبسملة ولسورة الفاتحة .

وتلتقى بكثير من أئمة الحديث مثل محمد بن الحاج عثمان الجمائى فى النصف الأول من القرن الحادى عشر وهو تلميذ نور الدين الأجهورى شيخ المالكية فى مصر ، ومن أئمة المحدثين عمر بن محمد بن عبد الله المحجوبى المتوفى سنة ١٠٧٠ هـ/١٦٥٠ م وله فى صحيح البخارى سند يصله بمؤلفه وله مصنفات كثيرة منها مقدمة فى الفقه فأرجوزة فى علم الكلام ، ومنهم سيد عثمان بن عمر المتوفى سنة ١١٢٨ هـ/١٧١٦ م بولاته ، وكان يقرئ صحيحى البخارى ومسلم وموطأ مالك وفيها جميعاً وفى كتاب الشفا بتعريف حقوق المصطفى للقاضى عياض أجزى بروايتها جميعاً من جلة العلماء فى مصر والمدينة المنورة وموريتانيا . ومنهم عمر بن باب وكان يقرأ صحيح البخارى فى المسجد وسنذكره بين النحاة . ومنهم محدث مدينة أروان أحمد بن البشير حامل روايات صحيحى البخارى ومسلم والشفا ، وكان يضيف إلى الحديث

التفسير وقراءة نافع برواية قالون ، توفي سنة ١١٨٤ هـ/ ١٧٧١ م . ومنهم أحمد بن خليفة محدث شنيق المتوفى سنة ١١٨٨ هـ/ ١٧٧٥ م وكان يقرئ صحيح البخارى وكتاب الشفاء للقاضى عياض .

وللفقه أعلام كثيرون من الفقهاء كانوا منبئين فى كل بلد وكل حى من أحياء القبائل نذكر منهم الفقيه محمد الملقب بالتبكي المتوفى سنة ١٠٥٠ هـ/ ١٦٤١ م وكان قاضى مدينة ولاته وعالمها ، ومنهم أحمد بن القاسم الحاجى فقيه وادان وله شرح على مختصر خليل بن إسحق ، توفي سنة ١٠٨٦ هـ/ ١٦٧٦ م وحمل عنه تلميذه أحمد أبو الأوتاد مختصر خليل وشرحه إلى تشيت . ومنهم سيد أحمد الولى بن أبى بكر المحجوبى قاضى ولاته وإمامها ومدرسها وكان ماهرا فى التفسير والنحو ويحفظ مقامات الحريرى ، توفي سنة ١٠٩٥ هـ/ ١٦٨٤ م . ومنهم الفقيه محمد بن أبى بكر الغلاوى وكان عالما بالفقه والنحو مطلعا على دقائقهما بصيرا بالفنوى فى النوازل مطلعا على كتب الفقه المالكى المعتمدة ، وله رسالة فى علم الكلام باسم عقيدة التوحيد ، توفي سنة ١٠٩٨ هـ/ ١٦٨٧ م . ومنهم الفقيه محمد المختار ابن الأعمش وهو إمام كبير وتلاميذه كثيرون انبثوا فى أنحاء موريتانيا توفي سنة ١١٠٧ هـ/ ١٦٩٦ م . ومنهم الحسن بن أعيد فقيه تشيت ، درس وأفاد وأحيا بفتاويه سبيل الرشاد ، وكان يقال من فاته الحسن البصرى بمواعظه فعليه بالحسن اليوسى ( المترجم له فى المغرب الأقصى ) ومن فاته اليوسى فعليه بالحسن بن أعيد ، وكان إماما فى الفقه والحديث مستحضرا لما مشاركا فيهما ، وكان قيما على مختصر خليل حسن الإقراء له ، وله منظومة فى مصطلح الحديث سماها روضة الأزهار وجعل عليها شرحا باسم قرة الأبصار ، وله منظومة أخرى فى التوحيد سوى فتاوى مفيدة ، توفي سنة ١١٢٣ هـ/ ١٧١١ م . ومنهم محمد بن أبى بكر المحجوبى الولاى فقيه ابن فقيه ابن فقيه ثلاثة فى نسق وكان جامعا لأنواع العلوم من تفسير وحديث وفقه وأصول ونحو ولغة وله منظومة فى علم أصول الدين ، ولعلها فى التوحيد ، توفي سنة ١١٣٧ هـ/ ١٧٢٤ م . ومنهم أحمد ابن إند عبد الله بن على المحجوبى ، وإليه انتهت رئاسة الفتوى والقضاء فى مدينة ولاته ، وله منظومة فى علم الكلام وأخرى فى الفرائض ( المواريث ) حجّ فى ركب من أهله ، ولقى كبار العلماء وأخذ عنهم ، توفي سنة ١١٤٠ هـ/ ١٧٢٧ م . ومنهم سيد أحمد الشواف قاضى وادان كان فقيها محدثا وشيخا صالحا وله فتاوى فقهية ، وهو من تلاميذ الحسن بن أعيد فقيه تشيت ، توفي سنة ١١٤٠ هـ/ ١٧٢٧ م مثل سابقه . ومنهم الشيخ أحمد بن محمد الجمانى ، له فتاوى فقهية وهو أيضا تلميذ الحسن بن أعيد ، توفي سنة ١١٥١ هـ/ ١٧٣٨ م . ومنهم الشريف أحمد بن فاضل ، وهو من تلامذة الحسن بن أعيد ، وكان إماما عالما ، وكان المفرغ إليه وإلى أخيه فى الفتيا ، وله ولأخيه فتاوى مجموعة ، توفي سنة ١١٥٣ هـ/ ١٧٤٠ م . ومنهم محمد بن الحسن بن أعيد كان يتقن الفقه والحديث والنحو فيقرئ طلابه رسالة ابن أبى زيد

الفقهية ومختصر خليل ويحدث بصحيح البخارى ويدرس ألفية ابن مالك وكانت له حلقة كبيرة يؤمها الطلاب فى تشيت ، وكان يدرس للرجال نهاراً وللنساء ليلاً ، توفى سنة ١١٥٩ هـ/١٧٤٦ م . ومنهم الشريف حمى الله ابن الشريف أحمد الحسنى ، وكانت له فتاوى فقهية متداولة فى موريتانيا ، وله شرح منظومة الأوجلى فى التوحيد ونظم صغرى السنوسى فيه ، توفى سنة ١١٦٩ هـ/١٧٥٥ م . ومنهم إند عبد الله بن أحمد المحجوبى قاضى ولاته ، برع فى الفنون كلاما وفقها وأصولا ونحوا ومنطقا ، له فتاوى فقهية وشرح على لامية الزقاق فى مجلد ضخم ، توفى سنة ١١٧٢ هـ/١٧٥٩ م ومنهم سننير قاضى أروان وكان بجرا فى الرواية والدراية توفى سنة ١١٨٠ هـ/١٧٦٧ م . ومنهم عمر الخطاط ، كان من الفقهاء البارعين ، وكان يقرئ الطلاب مختصر خليل قراءة تحقيق ، وكثر تلاميذه وطلابه حتى ربما بلغوا فى حلقة المائة ، توفى سنة ١١٩٦ هـ/١٧٨٢ م ومنهم عبد الله بن عبد الرحمن التشمشاوى الديمانى له شرح فى جزء على مختصر خليل فى الفقه المالكى سماه : « شفاء الغليل وراحة الغليل على مختصر الشيخ خليل ، توفى سنة ١٢١٢ هـ/١٧٩٨ م . ومنهم عبد الله بن أحمد الغلاوى البكرى ، فقيه أهل الحوض ، وله منظومات علمية كثيرة ، توفى فى صدر القرن الثالث عشر الهجرى . ومنهم عبد الله بن إبراهيم بن الإمام العلوى فقيه تيججكه ، كان عالما فقيها محدثا أصوليا بيانيا مفتيا ومدرسا ، وله منظومات فى علم الحديث وفى علم البيان وأعجب به محمد بن عبد الله سلطان المغرب الأقصى فأهداه خزانة كتب كبيرة نفيسة جدا ، وحج واجتمع بعلماء القاهرة وسمع به محمد على والى مصر فأكرمه ، توفى سنة ١٢٣٣ هـ/١٨١٧ م . ويتكاثر الفقهاء فى القرن الثالث عشر الهجرى ومنهم باب بن أحمد ييب ، وله شرح على كتاب التحفة لابن عاصم ، وكان ابن فرحون انتهى فى ترجماته لفقهاء المالكية بكتابه الدياج عند القرن السابع فأكمل ترجمة نظرائهم من الفقهاء حتى القرن الثانى عشر الهجرى/الثامن عشر الميلادى ، توفى سنة ١٢٧٦ هـ/١٨٥٩ م وكان ابنه التجانى فقيها مثله درس عليه فى أول أمره وعلى والدته الصالحة العاملة خديجة بنت المختار بن عثمان ، وكان من أعاجيب الدهر فى الذكاء ، وكان عالما بفن السير والفقه والأصول والبيان والنحو والتصريف واللغة والمنطق ، وله نظم فى أزواج الرسول ﷺ وأولاده وله عليه شرح نفيس مجلد ، ونظم ورفقات ثبى المعال إمام الحرمين فى علم الأصول ، توفى قبل أبيه بنحو عشرة أعوام . ومنهم الشيخ سيدى الأبييرى الكبير ، وكان عالما بالفقه والنحو ودقائقهما وله شرح على مختصر خليل باسم مرآة النظر فى وجوه خبايا المختصر ، وشرح ثان على باب الفرائض منه ، توفى سنة ١٢٨٤ هـ/١٨٦٧ م . ومنهم محمد بن محمد سالم المجلسى ، وله فى شرح مختصر خليل شرح باسم : لوامع الدرر فى حتك أستاذ المختصر ، توفى سنة ١٣٠٢ هـ/١٨٨٥ م .

## ( و ) أعلام النحاة والتكلميين

نستطيع أن نقول إن كل هؤلاء الفقهاء كانوا يتقنون العربية وقواعدها النحوية إتقاناً حسناً ، ومن اشتهروا بعلم العربية وتعليمها المختار النحوى الذى رحل فرارا من سُنَّ على حين استولى على تنبكتو مع صهره الفقيه المتقدم ذكره عمر بن محمد أقيت ونزل معه ومع أبنائه الفقهاء مدينة ولاته وظل بها يدرس النحو لطلابه إلى أن توفى سنة ٩٢٢ هـ/١٥١٦ م . وتردهر الدراسات النحوية منذ القرن الحادى عشر الهجرى/السابع عشر الميلادى وولتقى فى صدره بمحمد بابا بن محمد الأمين ، وله عدة مصنفات ، أهمها شرحه لألفية السيوطى فى النحو وسماه المنح الحميدة فى شرح الفريدة ، توفى سنة ١٠١٤ هـ/١٦٠٥ م . ومن نلتقى به بعده من النحاة فى آخر القرن وصدر القرن التالى أبو بكر الطفيل بن أحمد وكان نحويا فقيها منطلقيا ونظم كتاب فطر الندى فى النحو لابن هشام فى أربعمائة بيت ، توفى سنة ١١١٦ هـ/١٧٠٤ م وكان يعاصره محمد بن موسى بن إيجل علامه تشيت وكان فقيها نحويا لغويا أصوليا بيانيا عروضيا منطلقيا ، وله فى النحو أوراقه المشهورة التى انتفع بها طلبة موريتانيا سماها : « كشف النقاب فى قواعد الإعراب » وشرحها ، وله فى علم المنطق كتاب : « رتق الحجر العلق فى أصول وفصول المنطق » توفى سنة ١١١٧ هـ/١٧٠٥ م . ومن نحاة القرن الثانى عشر منير بن حبيب الله ، له شرح مفيد على الخلاصة رتب فيه توضيح ابن هشام ، وكان يقرئ الألفية لابن مالك ، توفى سنة ١١٦٢ هـ/١٧٤٩ م . ومنهم أحمد بن أحمد بن الإمام كان فقيها نحويا لغويا محققا ، وكان يقرأ لطلابه ألفية ابن مالك قراءة بتحقيق وتدقيق ، توفى سنة ١١٧٨ هـ/١٧٦٥ م . ومنهم الشريف المختار بن أحمد بن الإمام أحمد الإدريسي كان هو وأخواه من العلماء النجباء ، وكان يقرئ تلاميذه ألفية ابن مالك مستفيضا فى الشرح والتحقيق ، توفى سنة ١١٨٠ هـ/١٧٦٧ م ، ومنهم الإمام عمر م الولاتى ، كان نحويا لغويا أدبيا أخذ الناس عنه العربية وكان يقرئ طلابه الآجرومية وألفية ابن مالك ولايته فى التصريف قراءة بحث وتحقيق ، كل مرة يزيد البحث فيها عن المرة السالفة ، توفى سنة ١٢٠١ هـ/١٧٨٧ م . ومنهم عبد الله بن الطالب أحمد الشنيطى ، كان عارفا بأصول الدين قارئا فائقا فى العربية وعلوم البلاغة لا يبارى - كما يقولون - ولا يجارى ، له مؤلفات مختلفة فى القراءات السبع والفقه والحديث ، وله شرح على الكافية لابن الحاجب ومقدمة فى النحو للمبتدئين ، وشرح على الألفية ، وله شرح كبير وصغير لقصيدة بانة سعاد وشرح للامية العرب ، وشرح على نظم التلخيص للغزوينى وشروح أخرى كثيرة ، توفى سنة ١٢٠٩ هـ/١٧٩٥ م . ومنهم محمد بن أحمد بن الطالب الأمين كان نحويا لغويا عروضيا متكلميا ، وكان يقرئ طلابه فى النحو الآجرومية وألفية ابن مالك ولامية الأفعال ، وكان يقرئهم فى العروض متن الخزرجية ، توفى سنة ١٢١٥ هـ/١٨٠١ م . ومنهم المختار بن بون العالم النحوى الكبير ، وكان العلماء

قبله لا يكادون يتجاوزون ما فى الألفية وشروحها فنظم لهم وألف كتابا مفيدة ذكر فيها لكل مسألة الشواهد من كلام العرب ، فذلّل لهم بذلك النحو وقواعده ، واستقدمته قبائل الزوايا لتعليم أبنائهم العربية ، وله مقدمة فى النحو ألفها للمبتدئين ، توفى حوالى سنة ١٢٢٠ هـ / ١٨٠٦ م . وتعاقبت له مدرسة حتى نهاية هذا العصر قبل العصر الحديث وما فرض على موريتانيا من الحماية الفرنسية ، إذ تلمذ له بُلّا البوحسنى الشقراوى ، وكان عالما مشهورا ونحويا كبيرا ، وهو أحد من تخرجوا على يديه ، ومن أهم تلاميذ بُلّا عبد الودود بن عبد آل ، وهو - كما يقول الشنقيطى - نحوى شهير ، انفرد به من غير نكير ، أوضح للناس أسراره ، وأعلى مناره ، وبلغ فيه مبلغا لم يبلغه غيره ، وتخرج على يديه الحسن بن زين ، ويقول الشنقيطى له استدرارك على لامية الأعمال لابن مالك ، وتخرج على يديه سيبويه البلاد ، محظية بن عبد الودود ، توفى قريبا من سنة ١٣٢٠ هـ / ١٩٠٣ م .

ومن العلوم التى اهتم بها العلماء فى موريتانيا علم الكلام أو التوحيد ويتردد فى نعت كثير من فقهاءهم ونحاهم أنهم كانوا متكلمين ، ومن ألف فى علم الكلام مبكرا محمد بن أحمد الحسبانى المعلى ، وله فيه شرح الصغرى للسوسى ، توفى سنة ١٠٤٨ هـ / ١٦٣٩ م . وكان عمر الولاى الملقب بالخطاط أشعريّ العقيدة ، وكان مداوما على علم الكلام قراءة ونقلًا وتعلِيمًا ، وكان يقول : لو علمتُ عقيدة من علم الكلام لا أعرفها وفى مصر من يعرفها لرحلت إليه حتى أتعلّمها ، وكان يقرىء فيه كتب السنوسى ودليل القائد والجزائرية وإضاءة الدجنة للمقرى ، توفى سنة ١١٠٧ هـ / ١٦٩٥ م . ومنهم الطالب الأمين بن الحبيب الخرشى كان غاية فى علم التوحيد ، يقرىء عقيدة السنوسى المعروفة بأَم البراهين وعقيدته الصغرى وإضاءة الدجنة ومنظومة الجزائرى ودليل القائد قراءة تحقيق توفى سنة ١١٦٦ هـ / ١٧٥٣ م . ومن المتكلمين محمد بن يدفور قاضى تشيت ، وكان يقرىء طلابه عقائد السنوسى الخمس ودليل القائد وإضاءة الدجنة وجوهرة التوحيد ، كما كان يقرئهم قراءة نافع وألفية ابن مالك وقطر الندى لابن هشام ، وتوفى سنة ١١٨٨ هـ / ١٧٧٥ م . ومنهم الشيخ محمد بن عمر الخطاط الولاى وطنا المالكى مذهبا الأشعريّ اعتقادا الشاذلى طريقة ، أخذ العقيدة الأشعرية عن أبيه عمر والفقه والفرائض عن عبد الله بن أبى بكر الولاى والمنطق والعروض عن محمد بن موسى بن إيجل الولاى والحساب والفلك عن التقداسى ، وله مقدمة فى التوحيد سماها جوهرة الإرشاد ، توفى سنة ١١٩١ هـ / ١٧٧٨ م .

ومرّ ذكر المختار بن بون بين النحاة ، وله كتاب وسيلة السعادة فى علم التوحيد اختصر فيه تصانيف السنوسى الخمسة فى العقيدة مع بعض زيادات ، ويمكن أن يتخذ رمزا لكثير من علماء موريتانيا الموسوعيين ، فهو ينظم تلخيص القزوينى فى علوم البلاغة ، ومختصر

السنوسى فى المنطق وجمع الجوامع فى الأصول للسبكى . وكثيرون كانوا يعنون بعلم المنطق إذ يُعرّف به الصحيح من غير الصحيح فى التعريفات والأدلة والأقيسة ، وهو علم يونانى وضعه أرسطو ، ومنذ القرن الثانى الهجرى تتدارسه البيئات العلمية العربية ، فطبيعى أن يعنى به علماء موريتانيا . وبالمثل عنوا بعلوم البلاغة ، ونضرب مثلا ثانيا لهؤلاء العلماء الموسوعيين هو عبد الله بن محمد الشنقيطى ، فقد كان يقرئ تآليف السنوسى وإضاءة الدجنة فى علم الكلام ، وتفسير القرآن ، وصحيح البخارى ، وجمع الجوامع فى الأصول للسبكى والسلم فى المنطق للأخضرى ومختصر السنوسى فى المنطق وتلخيص المفتاح فى علوم البلاغة للسكاكى ، وله أجوبة فقهية ومشاركة فى النحو والعروض وحظ من علمى الحساب والهندسة . ونظّم كتاب التلخيص فى البيان والمعاني للقرزوبى فى نحو خمسمائة بيت وسماه نزهة المعانى فى ظهور البيان والمعانى ، وله تأليف فى المنطق ، توفى سنة ١١٤٣ هـ / ١٧٣١ م .

وعنوا بالتاريخ ولأحمد البدوى يعقوبى منظومة جيدة فى غزوات الرسول ﷺ ، ومنظومة أخرى فى أنساب العرب ، ويكثر عندهم مثل هذه المنظومات .

ولعل فى كل ما أسلفت ما يصور بوضوح نشاط الحركة العلمية فى موريتانيا على الرغم من أنه لم تكن هناك حكومة ترعى العلم وطلابه وعلمائه ، إذ تجردت له فى كل بلدة وكل قبيلة صفوة من العلماء الأبرار درستهم لشباب موريتانيا على مر الحقب والأزمنة .

## الفصل الثالث

### نشاط الشعر والشعراء

١

#### تعرب موريتانيا

أخذت العربية تغزو موريتانيا مبكرة على السنة بنى وارث الصنهاجيين منذ أسلموا على يد عقبة بن نافع ( ٥٠ هـ / ٦٧١ م - ٥٥ هـ / ٦٧٥ م ) وأخذ الإسلام ينتشر بين الصنهاجيين فى صحراء موريتانيا لعهد موسى بن نصير ( ٨٦ هـ / ٧٠٥ م - ٩٦ هـ / ٧١٥ م ) وأخذ يتسع انتشاره بين القبائل الصنهاجية الصحراوية فى القرون الهجرية الثانية والثالث والرابع . وكان يعتمد حينئذ على الصلوات الخمس وما يتلى فيها من القرآن ، وما يتلوه الشيوخ فى المساجد من القرآن الكريم والحديث النبوى .

وكانت القبائل الصنهاجية تعتنق الإسلام فى تلك القرون أو تأخذ فى اعتناقه ، غير أنها لم تتداول العربية فى لغتها اليومية ، إنما كانت تتداول لغتها البربرية ، حتى إذا كانت حركة عبدالله بن ياسين المارة منذ سنة ٤٣٠ هـ / ١٠٣٨ م أخذت القبائل الصنهاجية تعرف شريعة الإسلام معرفة صحيحة ، وأخذت تتحول إلى قبائل مجاهدة أو مرابطة تنشر تعاليمه فى السودان الغربى المدارى ، وتحمل الجماعات المنحرفة الضالة فى المغرب الأقصى من مثل البجلىة والبرغواطية على اتباع نهجه القويم ، حينئذ أصبحت القبائل الصنهاجية فى موريتانيا تمثل شعبا مسلما من شعوب العالم الإسلامى ، شعبا تُبنى فى جميع أركانه المساجد ، ويقوم فيها أئمة وعاظ وشيوخ يقفون الناس على شئون دينهم ويحفظونهم بعض سور القرآن الكريم ، إن لم يكن القرآن جميعه ، كما يحفظونهم بعض الأحاديث النبوية .

وفى رأى أن قلة من الصنهاجين الموريتانيين حفّت بهؤلاء الشيوخ وعرفت العربية ، ولكن الكثرة الصنهاجية ظلت تتداول اللغة البربرية ، ويخفف من حدتها تلاوة القرآن فى المساجد ونزول بعض الشيوخ فى البلدان الموريتانية مثل نزول الشيخ إسماعيل - كما مر بنا - فى ولاته سنة ٦٠٠ هـ / ١٢٠٣ م وقيام القضاة فيها على تنفيذ أحكام الشريعة مثل قاضى ولاته الذى أكرم ابن بطوطة حين نزل بلده سنة ٧٥٣ هـ / ١٣٥٣ م ونوّه بأخ له مدرس ، ويغزوسن على تمبكتو ويشمل بها النيران سنة ٨٧٣ هـ / ١٤٦٨ م فيفر فقهاؤها إلى ولاته وفى مقدمتهم الشيخ

عمر بن محمد أقيمت مما أتاح لها أن تكون مركزاً لحركة علمية فى القرن العاشر الهجرى كما أتاح لأهلها فرصة واسعة للتعرب .

وبعد أكثر من قرن يرسل المنصور الذهبى السعدى حاكم المغرب الأقصى جيشا ضخما للاستيلاء على بلدان السودان الغربى كما أسلفنا ويفتحها ويجند عرب المعقل فى جنوبى المغرب الأقصى والجزائر لحراسة فتوحه ، وتنزل حسان موريتانيا وتستقر فيها قبائلها فى أدرار وتيرس والجنوب الغربى من موريتانيا ، وتنزل قبيلة البرابيش الحسانية فى مدينة تيشيت وقبيلة الأوداية الحسانية فى الصحارى الواقعة بين وادان وولاته . وهكذا تنتشر قبائل حسان العربية فى جميع موريتانيا ، ويتم بذلك تعربها كما تعرب المغرب فى منتصف القرن الخامس بالقبائل العربية من بنى سليم وهلال التى احتلت دياره وأرجاءه ، غير أن لسانهم الفصحى كانت قد عمت فيه عامية حسانية عربية خالفت من بعض الوجوه لسان أجدادهم فى بعض الأوضاع والتصاريف لاختلاطهم قرونا متوالية بالبربر . وقد نشرت هذه القبائل لغتها الحسانية العامية فى موريتانيا ، وهى عامية عربية . ومن الطريف أنها تحتفظ بالمشى بينما يسقط من عاميات أخرى كالعامية المصرية ، ولم تأخذ موريتانيا عنها هذه العامية العربية وحدها بل حملت عنها أيضا ما كانت تنظمه فى مواطنها من الملاحم والأناشيد والقصائد التى تشتمل على أغراض الشعر العربى من المدح والغزل والفخر والحماسة والمجاء والثناء . وعلى هذا النحو تعربت موريتانيا تعربا حسانيا ، فالألفاظ هى الألفاظ العربية والأوزان هى الأوزان العربية . ومعنى ذلك أن القبائل الحسانية الموريتانية كانت لا تزال تحتفظ بميراثها من الألفاظ وأوزان الأشعار وأغراضها ، مما يدل دلالة قاطعة على أنها كانت لا تزال تحتفظ بسليقتها العربية التى توارثتها منذ مئات السنين ، وهى سليقة تشهد بأن هذه القبائل لا تزال قبائل شعر وقصيد كما كان آباؤهم الأولون . ومعروف أن الأمم إزاء الشعر تختلف ، فهناك أم شاعرة ، ومنها الأمة العربية ، فهى أمة شعر وشعراء ، مهما اختلف عليها من الأعصار ومن الخطوب والأحداث ، ومهما ظلت على فصحاها أو تطور بها الزمن ، واستخدمت لغة عامية مشتقة من فصحاها ومتصلة بها اتصال الفرع بأصله ، وحقا دخلت فيها بموريتانيا بعض ألفاظ بربرية وخاصة مما يتصل بترية الخيل والإبل والبقر والزراعة والرعى ، غير أن ذلك لم يخرجها عن صورتها العربية .

وبذلك توارث سكان موريتانيا السليقة الشعرية العربية ، وعمل الإسلام فى أن تستم العامية الموريتانية على ألسنة كثيرين الفصحى إذ دارت على ألسنتهم فى حفظ القرآن الكريم وتعلمه وفيما أكبوا عليه من العلوم الإسلامية ، وقد مضوا يتعلمون العربية ويتعمقون فى دراسة أشعارها الجاهلية على مر العصور . وكانت المرأة - كما مر بنا - هى التى تقوم على تعليم الناشئة حتى الثانية عشرة أو الثالثة عشرة سواء الذكور أو الإناث ، تعلمهم الكتابة والذكر الحكيم ،

مما جعل التعلم فى موريتانيا منذ القرن الحادى عشر المجرى - وربما قبله - عاما فى البلدان والقبائل جميعها بحيث يقول الشنقيطى : « لا يوجد من بين قبائل الزوايا ذكر أو أنثى إلا يقرأ أو يكتب ، وإن وُجد فى قبيلة غير ذلك فإنه نادر بحيث لا يوجد فى المائة أكثر من واحد على تقدير وجوده » . وكان الأمية تلاشت نهائيا فى قبائل الزوايا ، وهى إن لم تنحصر فى القبائل الموريتانية الأخرى نهائيا فإنها - هى والبلدان الموريتانية - كانت تسارع إلى التعلم ، يدل على ذلك فى مدينة ولاته مثلا أنها كانت مركزا كبيرا من مراكز الثقافة العربية وأن علماءها كانوا كثيرين كثرة مفرطة ، وأخذت شنقيط وغيرها من مدن موريتانيا تزاحمها فى هذا المركز أو فى هذه المكانة .

ولعل فيما ذكرنا ما يدل بوضوح على أن التعرب فى موريتانيا كان آخذا فى النمو السريع منذ القرن الحادى عشر المجرى ، بفضل من نزل فيها من قبائل حسان وما بثوا فيها من الاستعداد للتعرب ، وبفضل إكباب أهلها على التعلم ، بحيث أصبح فيها كثرة من العلماء فى كل علم وكثرة مماثلة من شعراء الفصحى ، بل حتى يخيل إليك كأن الموريتانيين جميعا كانوا شعراء .

## ٢

### شعراء المدح

أكثر من بوجه إليهم المدح فى موريتانيا السادة والشيخوخ ، إذ يشكر الشاعر من يقدم إليه معروفا أو صنيعا مثنيا عليه ومدحا ، ويمدح التلاميذ شيخوهم مصورين ما يتحلون به من علم وخلق رفيعين ، كما يمدح الشيخوخ زملاءهم منوهين بتعمقهم فى العلوم وخاصة العلوم الإسلامية ، وبأخلاقيتهم المثالية الرفيعة ، وكثيرا ما ينوه الشاعر بشعر زميله وتفوقه فيه ، وقد يمدحون قبيلة ذاكرين فضائلها ، وقد يمدحون أحد سلاطين الدولة العلوية فى المغرب الأقصى . ونعرض أطرافا من مدائحهم ، فمن ذلك مدح المأمون العقوبى المتوفى سنة ١٢٣٨ هـ / ١٨٢٣ م للمجيدرى بن حبيب الله وكان من أعلام العلماء فى موريتانيا كما كان شاعرا ، واتصل بالسلطان المغربى محمد بن عبد الله ( ١١٧١ هـ / ١٧٥٧ م - ١٢٠٤ هـ / ١٧٨٩ م ) ونال حظوة عنده ، وحين رحل إلى الحج أكرمه حاكم مصر ، وفى السلطان محمد يقول مشيرا إلى منزله منه : وكان يباحثه فى كثير من الأفكار العلمية ويحمد له آراءه ، كما أشار إلى حملة طائفة من معاصريه الموريتانيين عليه لإنكاره علم المنطق الأرسططاليسى والنهى عن دراسته<sup>(١)</sup> :

(١) الشعر والشعراء فى موريتانيا للدكتور محمد المختار ص ٢٣٣ .

بلاه أمير المؤمنين محمد  
وقد كان للإسلام بالنضح راعيا  
ولكن ييادى الرأى أو بإشاعة  
وما كان فى كل العقائد لو دَرَوَا  
قفوا فانظروا فى نُكْرِهِ أَعْقَائِدُ  
أَبَانَ السُّيُوطى نهجهم فيه جملةً

واليعقوبى ينوه بتكريم السلطان محمد بن عبدالله العلوى له ومعرفته بعلمه وفضله ، ويقول  
إنه عالم ذكى متعمق فى العلم ناصح للمسلمين ، ومن العجب أن ترميه جماعة - عن قوس  
واحدة - بأنه منحرف ، مع أنه متمسك كل التمسك بعقائد الدين لا يخالف أئمة  
السالفين فى قليل بل فى أقل القليل ، وكل ما فى الأمر أنه ينهى عن دراسة المنطق اليونانى ،  
وهى وجهة نظر يتفق معه فيها السيوطى المصرى والقرطبى الأندلسى . ويقول الشويعر أحد  
شعراء النصف الأول من القرن الثالث عشر الهجرى فى مديح حُرْم بن عبد الجليل العلوى  
واسمه محمد<sup>(٣)</sup> :

أحمدٌ أم ليثُ غابِ مقبلُ  
قاضى قضاةٍ قد نمته مشايخُ  
سَهْلُ الجنابِ يلينُ ما لا يئنه  
يا مَنْ سما فوق الكواكب مجدهُ  
وَجِيئُهُ أم عارضٌ متهللُ<sup>(٤)</sup>  
يَسْمُو بِهِ حسبٌ ومجدٌ عدملُ<sup>(٥)</sup>  
وَإِذَا يُسامِ الخسفَ ليثٌ مُشْبِلُ<sup>(٦)</sup>  
النَّجْمِ وَإِنِ والسَّمَاكُ الأَعزَلُ  
فى هذه الدُّنيا فأتت الأَكْمَلُ  
إِن الكَمالَ إِذا يفوزُ بِهِ امرؤُ

ويشيد بحرم قاضى القضاة ، ويجعله ليث غاب شجاعة وضاوة ، كما يجعل جيينه  
سحابا متهللا كناية عن كرمه المدرار ، ويشيد بابائه وحسبه ومجده القديم ، ويقول إنه سهل  
الجناب سخى ، ولين مع مَنْ يلاينه ، أما إذا سامه شخص خسفاً أو ظلما فإنه يصبح ليثا  
هصورا . ويذكر له أن مجده علا فوق الكواكب ، وأن النجم والسماك الجنوبي  
لا يلحقان شأوه ، وأنه إذا كان هناك شخص يفوز بنعت الكمال فأتت الأكملة الذى لا يبارى  
ولا يجارى . ويقول محمد مولود المباركى من شعراء القرن الثالث عشر الهجرى فى مديح  
محمد بن كمال<sup>(٧)</sup> :

(١) الفتر : ما بين الإبهام والسبابة فى القياس .  
(٢) السبر : الاختيار .  
(٣) الشعر والشعراء فى موريتانيا ص ٢٣٩ .  
(٤) عارض : سحاب مطر .  
(٥) عدمل : قديم .  
(٦) سامه خسفاً : أذله أو ظلمه . ليث مشبلٌ له أشبال وأولاد .  
(٧) الشعر والشعراء فى موريتانيا ص ٢٧٢ .

يَلْقَى العُفَاةَ بِوَاضِحٍ مَتَبَلِّجٍ  
وَاللَّهُ إِذْ قَسَمَ الْمَكَارِمَ فِي الْوَرَى  
لَوْ وَاجِهَ الْبَدْرَ الْمُنِيرَ بِوَجْهِهِ  
أَوْ قَابِلَ الشَّمْسِ الْمُضِيئَةَ بِالضُّحَى  
لَوْ أَنَّهُ وَازَنَتْهُ بِلَدَائِزِهِ  
فَتَبَارَكَ اللَّهُ الَّذِي أَعْطَاهُ مَا  
مَتَبَسِّمٍ يَسْتَبَشِّرُ اسْتِهْلَالَ(١)  
أَوْفَى لَهُ مِنْ حَظِّهِ الْيَكْيَالَا  
لَغَدَا بِهِ الْبَدْرُ الْمُنِيرُ هَلَالَا  
صَحْوًا لِأَلْبَسَ وَجْهَهَا أَجْلَالَ(٢)  
وَزَنُوا الْبِعُوضَ وَوَاظَنَ الْأَجْبَالَ(٣)  
يَسْتَوْجِبُ الْإِكْرَامَ وَالْإِفْضَالَ

ومحمد مولود يمجّد في محمد بن كمال كرمه الفياض الذي يجعله يلقي السائلون بوجه مشرق سمح متبسّم مستبشّر . ويقول إن الله إذ قسم المكارم في الناس وفي له حظه منها . ويعمد إلى المبالغة في مدحها ، فلو أنه واجه البدر المنير بوجهه لتصاغر أمامه وغدا هلالا ، ولو أنه قابل الشمس المضيئة ضحى والسماء مصحبة لباءت منه بكسوف ما مثله كسوف ، ولو أنك قارنته بأترابه لغدوا كأنهم بعوض أمام جبل أو جبال ضخمة ، فتبارك الله الذي تفضل عليه بكل هذه العطايا والمنح الجزيلة . ويقول على بن الأ من شعراء القرن الثالث عشر الهجري في مدح بني شعبان(٤) :

اليَوْمَ أَصْبَحَ قَدْ تَفَرَّدَ بِالْعُلَا  
النَّازِلُونَ مِنَ الثَّغُورِ مَخُوفَهَا  
وَإِذَا الْأُمُورَ تَعَاظَمَتْ وَتَشَابَهَتْ  
كَمْ فِيهِمْ مِنْ نَاشِئٍ ذِي بَهْجَةٍ  
حَفِظَ الْمَسَائِلَ وَالْعَقَائِدَ فَرَعَهَا  
وَخَوَى حَدِيثَ الْمُصْطَفَى بِنُصُوصِهِ  
قَسُومٌ إِذَا مَا أُسْتُوا جَادُوا كَمَا  
وَالْمَجْدِ سَادَتْنَا بَنُو شُعْبَانَ  
وَالْقَائِلُونَ هَلُمَّ لِلضِّيْفَانِ  
فَصَلُّوا الْخُطَابَ بِحِكْمَةٍ وَبَيَانِ  
يُبْدِي دَقِيقَ النَّهْمِ بَيْنَ مَعَانِي  
وَالْأَصْلَ بَعْدَ فَصَاحَةِ الْأَلْحَانِ  
وَشَرُوحِهِ وَمَعَانِي الْقُرْآنِ  
جَادَتْ سَوَاكِبُ صَيْبِ التَّهْنَانِ(٥)

وهو يقول إن بني شعبان تفرّدوا بالعلو والمجد والنزال الضاري في الثغور المخوفة ، وهم ذوو الوجوه المستبشرة في لقاء الضيفان ، وإذا الأمور ادطمت وأشكلت نطقوا بفصل الخطاب في حصافة وحكمة وبيان رائع ، وما أروع ناشئهم ، فكم من ناشئ دقيق الفهم منهم ، حفظ مسائل الفقه والعقيدة فروعها وأصولها وحفظ حديث المصطفى صلى الله عليه وسلم بنصوصه وشروحه كما حفظ معاني القرآن الكريم ، فما أعظمهم من قوم كرام وأى كرم إليهم إذا ما أجدبوا سنة استحالوا في الجود غيثا مدرارا ، كما تجود مواكب السحب المتراكمة

(٤) الشعر والشعراء في موريتانيا ص ٢٧٥ .  
(٥) أستوا : أجلبو . الصيب : السحاب المطر .  
التنهان : السائل بقرارة .

(١) العفاة : السائلون - متبلج : مشرق .  
(٢) أجلا : جمع حل : غطاء .  
(٣) الأجال : جمع جبل .

المدفقة . ويمدح الشاعر محمد بن محمد العلوى السلطان العلوى عبد الرحمن ابن هشام  
( ١٨٢٤ - ١٨٥٩ م ) قائلا<sup>(١)</sup> :

خليفة مصباح الهدى وحفيدة  
غيور على يضاء سته التى  
أنام عيون الناس تحت عدالة  
فأصبح نثر الأرض سوقاً وأصبحت  
حماها - حماه الله - أن تستيحها  
وحى لعافى رثعه المتقادم<sup>(٢)</sup>  
أبيحت لها - لولاه - كل محارم  
وقت رجل سارى الليل لدغ الأرقام<sup>(٣)</sup>  
ماسد لها مرعى المخاض السواهم  
من اعدائها دهم الدواهى الدواهم

وهو يقول إن سلطان المغرب الأقصى عبد الرحمن خليفة مصباح الهدى جده العظيم أعاد  
الحياة لدارس ربع الهدى القديم ، وإنه غيور على السنة التى لولاه لأبيحت لها كل المحارم . وقد  
شملت عدالته كل الرعية وعمها أمن واسع وقى الناس لدغ الأفاعى الشريرة ، حتى لأصبح  
نثر الأرض الحربى سوقاً آمنة ، وأصبحت المأسد المخيفة بأسدها مرعى آمنة للنوق الحوامل ،  
وحى الأرض جميعها - حماه الله - من سود الدواهى العاشمة . وولتقى بأخرة فى العصر  
بمحمد بن حنبل البوحسنى المتوفى سنة ١٣٠٢ هـ / ١٨٨٥ م وقد أكرم من مديح الشيخ سيدياً ،  
ومن قوله فيه بإحدى مدائحه<sup>(٤)</sup> :

شيخ سنه وصيته ونداه م  
شيخ تجرد للجميل فدابه  
ولنعم مرتاد الأرامل أنتم  
ولأنت أكرم ما حوت أقطارها  
آلى الزمان أليمة مبرورة  
لء الأيد والأبصار والآذان  
نفع الأنام وطاعة الرخمن  
والشعث والأيتام والضيفان  
بل ما عليه تعاقب الملوان  
أن لا يكون من الورى لك ثانى

وابن حنبل يقول عن الشيخ سيدياً إن نداءه أوجوده ملء الأيدى وسناه أو ضوءه ملء  
الأبصار وصيته ملء الآذان ، وإنه تجرد لصنع الجميل فعادته نفع الناس بكرمه الفياض وعبادة  
الرحمن ونسكه ، والأرامل ترتاد منزله وتلمسه ، وكذلك أبناء السبيل الشعث المغبرون والأيتام  
والضيوف الكثيرون . ويقول له إنك أكرم من احتوته أقطار الأرض وتعاقب عليه الليل والنهار .  
وأقسم الزمان قسماً مبروراً صادقاً أن ليس لك فى الناس ثان يبلغ مبلغك . وتوقف قليلاً  
للحديث عن ثلاثة من شعراء المديح .

(٣) الأرقام : الأفاعى .

(١) الوسيط فى تراجم أدياء شفيط ص ٥٣ .

(٤) الشعر والشعراء فى موريتانيا ص ٢٦٨ .

(٢) عافى : دارس .

## ابن (١) رازكّه

هو عبد الله بن محمد بن القاضي العلوي عبد الله المعروف باسم ابن رازكّه ، وهى أمه ، كان جده قاضى البراكنة الحسانين ، ولد لأبيه فى أرض القبلة جنوبي موريتانيا ، وبها منشؤه ، وطمحت نفسه إلى التزود من العلوم ورحل فى تلقّيا إلى شيوخها الأرائل حتى أتقن العربية والبيان والمنطق والهندسة كما أتقن الفقه والعلوم الإسلامية مما أتاح له أن يصبح قاضيا بموريتانيا ، وكان كثير الأسفار من القبلة موطنه إلى مكناسة فى المغرب الأقصى عاصمة السلطان العلوي النابه إسماعيل ( ١٠٨٢ هـ / ١٦٧٢ م - ١١٣٩ هـ / ١٧٢٧ م ) وتوثقت عرى الصداقة بينه وبين ابنه محمد وكان عالما وشاعرا وولاه أبوه السوس ، وأعجب بابن رازكّه ووسع له فى مجالسه كلما وفد عليه ، وأغدق عليه كثيرا من عطاياه ، إذ أهداه مكتبة نفيسة من كتب العلوم الإسلامية ومن دواوين الشعر العربى ، ولا ريب فى أنه كان لها أعمق الأثر فى ثقافة قبيلة ابن رازكّه وثقافة موريتانيا عامة ، وأنشد الشنقيطى قصيدتين لابن رازكّه فى مدح الأمير محمد بن إسماعيل وفى أولاهما يقول :

فَتَى يَسْتَقِلُّ الْبَحْرَ جُودُ بَنَانِهِ	على حالة استكنارٍ حاتمِ الرِّشْحا
وَأَيَّاتُ عِلْمِ أَحْمَدَ الْجَهْلَ نَوْرُهَا	وغاياتُ جِدِّ لَيْسَ تَطْلُبُهَا مَرْحَا
وَرَأَى يُرِيهِ الْيَوْمَ مَا فِي حَشَا غَدِي	ويكشفُ عنه من دَجَى لَيْلِهِ جُنْحَا <sup>(١)</sup>
وَحَزْمٌ يَهْزُ الرِّاسِيَاتِ ثَبَاتُهُ	وعَزْمٌ يَحَاكِي الزَّنْدَ مَاضِيَهُ قَدْحَا <sup>(٢)</sup>
وَلَمْ تَدْعِنِ الْأَعْدَاءَ مَحْضَ مَوَدَّةٍ	إِلَيْهِ وَلَكِنْ إِنَّمَا كَرِهُوا الْفَرْحَا <sup>(٤)</sup>
مُؤَاصِلَةَ حِلِّ الْجِهَادِ جِيَادُهُ	وَوَقَفَ عَلَى غَزْوِ الْعَدَا عَدْوُهَا ضَبْحَا <sup>(٥)</sup>
فَلَا زَلَّتْ لِلْإِسْلَامِ عِيْدًا مَنَعُصًا	تَنَعَّصُ حُسْنَاهُ السَّعَانِينَ وَالْفِصْحَا

وهو يصف الأمير محمد بن إسماعيل بالكرم الفياض حتى ليرى البحر جود بنانه قليلا بالنسبة إلى أعطياته على حين كان حاتم المشهور بجوده يستكثر الرشح ، مع دلائل علم راسخ أطفأ نوره الجهل فى المغرب الأقصى إلى غير رجعة ، ومع غايات جد جادة إلى أقصى حد ، ومع رأى يبصره بما يأتى به الغد ، ويكشف له ما قد يكون حوله من ظلمات ، ومع حزم ثابت ثبوت الراسيات وعزم يحاكي سيفه الماضى الزند بشراره المبيت ، مما جعل الأعداء تدعن له وتذل خشية ما ينزل بها من القرح والجراح ، وإن جياده لتواصل الجهاد والعُدو فى غزو الأعداء عدوا شديدا . ويدعو أن يظل محمد بن إسماعيل عيدا بهيجا للإسلام ومنغصا لأعياد

(١) الماضى : السيف القاطع . قدح الزند : ضرب حجره بعضهما ببعض لاستخراج النار منه .  
(٢) القرح : الجرح والحزيمة .  
(٣) الضحيا : عدوا شديدا .

(١) انظر فى ترجمة ابن رازكّه الوسيط للشنقيطى ص ١ - ٢٤ ، وص ٣٩٧ والشعر والشعراء فى موريتانيا ص ٤٧ ، ٢٢٩ .  
(٢) جنح الدجى هنا : جانبه .

النصارى مثل عيد الشعانين الذى يسبق عيد الفصح بأسبوع . ويمدحه ابن رازكه فى القصيدة الثانية بمثل قوله :

هو الوارث الفضل النبئى خالصاً  
ثمال اليتامى والأيامى مؤكلاً  
أغر المحيياً طاهر البشر طاهر ال  
حميد المساعى سار فى الرتب العلا  
من العلم والعليا ومن طيب مَحْتَدٍ<sup>(١)</sup>  
بتفريج غمّاء الشجى المتكّد<sup>(٢)</sup>  
سجاً يا كريم اليوم والأمس والغد  
من المجد سير السابق المتفرد  
إلى شرف البيت الكريم المصد<sup>(٣)</sup>  
حوى شرف العلم الرفيع عمادهُ

ويقول لمحمد بن إسماعيل فى وصف تلك القصيدة :

عروب عروس الزى أندلسية من الأدب العَضُّ الذى روضه ندى

وهو يمدحه بأنه علوى ورث الفضل النبوى من العلم والعليا وشرف الأصل والنسب ، ويقول إنه غوث اليتامى والأيامى من النساء غير المتزوجات ، مفرج غمّ الحزين المملوء نكدا وهماً ، أغر المحيا أى سمح الوجه مستبشر دائماً طاهر الأخلاق والطباع كريم كرماً متصلاً فى أمسه ويومه وغده ، كل مساعيه تجلب له الحمد والثناء ، وإنه ليسير فى منازل المجد سير السابق المتفرد ، وقد تحلّى بشرف العلم الرفيع مع شرف بيت النبوة الكريم وإنه ليقصده الناس لتحقيق حوائجهم وأمانهم . ويذكر ابن رازكه فى أواخر قصيدته أنها عروس عربية جميلة من الشعر الناضر ، ويقول إنها أندلسية كشعر الأندلسيين المشهور بالروعة . ونشعر عند شعراء موريتانيا بهذه الصلة الوثيقة التى تربطهم بالأندلسيين لقربهم من الأندلس فردوس العرب المفقود الذى أبل فيه أجدادهم من الصنهاجيين بلاء عظيماً أيام المرابطين . ونكفى بما أسلفنا من مدح بديع لابن رازكه ، فقد اتضح لنا صوته وجمال شعره وما يتصف به من جزالة ونصاعة ، وسنعود إليه فى حديثنا عن الرثاء . توفى سنة ١١٤٤ هـ / ١٧٣٢ م .

#### محمد<sup>(٤)</sup> اليدالى الديمانى

من قبيلة ديمان إمام فى علوم الشريعة إذ له فيها تفسير قيم للقرآن الكريم سماه - كما أسلفنا - « الذهب الإبريز على كتاب الله العزيز » وهو فى مجلدين وله مصنفات أخرى فى سيرة الرسول ﷺ وآداب السلوك وتاريخ الزوايا المشغوف أهلها بالعلم وتعمير الأرض ، وله كتاب فى مناقب وليهم : ناصر الدين صاحب الفتوحات فى السنغال . وهو إلى ذلك كان شاعراً فذاً من شعراء موريتانيا ، وكان صديقاً للقاضى ابن رازكه ، وفيه يقول :

(١) محند : أصل .

(٢) ثمال : غوث . الأيامى ها : النساء غير المتزوجات .

(٣) المصد : المقصود لتضاد الحوائج .

(٤) انظر فى ترجمة اليدالى وشعره كتاب الوسيط

ص ٢٢٣ والشعر والشعراء فى موريتانيا ص ٤٩ ،

٢٣١ .

لسُدفة الجهل جالى <sup>(١)</sup>	قاضى القضاة سراج
مل الزيف والإعتزال	وسيفُ حقٌ على أهد
أُبهي حُلَى وجلال <sup>(٢)</sup>	به العلومُ تحلَّت
يَخطِرُ لِإنسٍ يبال	قد فاز منها بما لم
سبِّ والعقائد عالى	مقامه فى الأعاربـ
وكلُّ سحرٍ حلالٍ	وفى البلاغة نظماً
وفى علوم الأوالى	وفى العلوم جميعا

واليدالى يمدح ابن رازكه بأنه سراج منير جلا ظلمة الجهل وبددها وأنه سيف حق فى قضاائه وأحكامه على أهل الزيف والضلال وفى آرائه السنية ضد الاعتزال والمعتزلة ، وقد ازدانت به العلوم وليست أحلى حليها وأبهى حللها وثيابها إذ ظفر منها بما لم يخطر بذهن إنسان ، ومقامه فى أعراب موريتانيا وفى العقائد عال رفيع، وبالمثل فى الشعر الساحر الخلاب وفى العلوم جميعا وعلوم الأرائل من هندسة وغير هندسة. وأجاب ابن رازكه بقصيدة بارعة نوه فيها بحله للغوامض المشككة فى الفقه وغير الفقه وأنه سيف أشعري ماض فى روده على المعتزلة ، وكانت جماهير العلماء فى موريتانيا والمغرب جميعه تعتنق العقيدة الأشعرية. وكان اليدالى ينشد:

ليس من أخطأ الصوابَ بمُخطِئٍ      إنَّ يوبُ لا ولا عليه ملامة  
إنما المخطيء المسبىء الذى إنَّ      وضُحَ الحقُّ لِحْ يَحْمى كلامه

وهو يقول إن المخطيء هو من يتمادى فى خطئه ، أما من يرجع عنه فلا لوم عليه ولا تتريب ، إذ الرجوع إلى الحق فضيلة . ولليدالى فى مديح أحمد بن هيبه البركى الحسائى قوله من قصيدة طويلة :

ورثت العلاء والعزَّ والمجدَ أحمدُ	وبذلَ الندى عن هيبَ مفخرةَ العَصْرِ <sup>(٣)</sup>
وإنك أسماهم علواً ورفعاً	بمنطقة الجوزا ومنطقة البدرِ
وأيامكم خضراً جنيئاً ثمارها	بأيدى المنى ما بين أوراقها الخضرِ
وقاك إله العرشِ يا أحمدُ الردى	وجنبت أنواعَ المكاره والضُرِّ
وأولاك ربُّ الناس فى نفسيك المنى	والك والأولادِ والمالِ والعُمرِ

وهو يقول لأحمد بن هيبه إن العلاء والعز والمجد ورثتها جميعا عن أيبك مفخرة العصر ، وإنك أسمى العشيرة البركنية رفعة وعلواً فى منطقة برج الجوزاء الصاعد فى السماء ومنطقة البدر المنير ، وأيامكم خضر سعيدة جنيئا ثمارها بأيدى المنى من بين أعوادها وأوراقها

(١) سدفة : ظلمة .

(٣) الندى : الكرم والوجود .

(٢) حلال هنا : جمع حلة : نوب ضاف .

الخضر ، ويدعوله أن يقيه إله الكون الملاك وينحى عنه أنواع المكاره والضر ، ويعطيه ما يتمناه فى نفسه وآله وأولاده وماله وعمره. توفى سنة ١١٦٦ هـ / ١٧٥٣ م وسعود إليه فى حديثنا عن الفخر والرثاء .

### حُرْمٌ<sup>(١)</sup> بن عبد الجليل العلوى

ويقال له أيضا حرمة الله وحرمة الرحمن ، ولد لأبيه فى أرض القبلة ، وبها نشأته ، وشغف بالعلوم اللغوية والإسلامية وطلبها عند شيوخ مدينتى شنتييط وأطار . وهو من تلاميذ المختار ابن بون فى العربية ، وكان يتقن مختلف العلوم ، وبه اتفح خلق كثير فى النحو والفقه ، وكان شاعرا يؤثر فى شعره الانسياب مع الطبع والسهولة فى اللفظ ، على نحو ما نرى فى قوله يمدح بُلًّا الشقراوى الحسنى مشيدا بعلمه وشعره :

إن بُلًّا مشايخ حين تَمَرُّو	شاردات تَفَوَّتْ أَرْكَمَى الْعُقُولِ
من فَوْنٍ شَتَّى تُعْنَى الْمُعَانَى	من عَوِيصِ الْمُنْقُولِ وَالْمَعْقُولِ
يُسَعِّفُ السَّائِلِينَ عَنْهُ بِمَا فِيهِ	لَهُ لَذَى غَلَّةٍ شَفَاءُ الْغَلِيلِ
إِنْ يَسِرْ لَاتَسَابِ مَجْدٍ رَعِيْلٌ	كَانَ بُلًّا دَلِيلَ ذَاكَ الرَّعِيْلِ <sup>(٢)</sup>
شَعْرُهُ مَطْرَبٌ حَمِيَاهُ تَسْرَى	فِي عِظَامِ الْجَلِيْسِ مِثْلَ الشُّمُولِ <sup>(٣)</sup>
يَنْفُثُ الدَّرَّ وَالْيَوَاقِيْتَ إِلَّا	أَنْ لِلدَّرِّ قَسْوَةً فِي التَّلِيْلِ <sup>(٤)</sup>

وحرم يقول إن بُلًّا ليس شيخا واحدا بل هو عصبة من المشايخ وفضله يبدو حين تلم شارادات من العلوم لا تستطيع أركمى العقول أن تفقه عويص المنقول والمعقول فيها ، فسرعان ما يشفى ظمأ السائلين بحله لعويصها وتذليله ، وما من سابقين يسيرون فى ليل مدلم إلى مجد إلا كان دليل هؤلاء السابقين ، وناهيك بشعره فهو شعر مطرب تسرى شدة تلاحينه فى عظام السامع سريان الخمر فى الجسد ، وإنه ليلفظ الدرر واليواقيت المتعة لقارئه دون أى عناء . ويقول فى مدح شعر الشويمير الحسنى :

معناه راق راق حُسْنَا لفظه	لله فكر جال فيه ومقول <sup>(٥)</sup>
يُسدَى وَيُلحَمُ فى البلاغة حائكا	حَلَالاً يَتِيَهُ بِهَا الْقَرِيضُ وَيُرْقَلُ <sup>(٦)</sup>

(١) انظر فى ترجمة حرم وشعره كتاب الوسيط ص ٢٤ والشعر والشعراء فى موريتانيا ص ٥٨ ، ٢٣٦ - ٢٣٧ .  
(٢) الرعيل : السابقون فى الجماعة .  
(٣) حمياه : شدته وسورته . الشمول : الخمر .  
(٤) التليل : العنق .  
(٥) مقول : لسان .  
(٦) يسدى من السدا وهو الخيوط طولاً ، ويلحم : من اللحمة وهى الخيوط عرضاً . ويسدى ويلحم أى ينسج . يرقل : يجر ثوبه متبخرا .

أَغْنَاهُ عَنْ تَعَبِ التَّعْلَمِ طَبَعُهُ      إِنَّ الْعَوِيصَ لَهُ يَهْوُنُ وَيَسْهَلُ  
 إِنَّ الْبَلَاغَةَ فِي الْبَلِيغِ غَرِيظَةٌ      لَا بِالْعَلَّاجِ يِنَالُهَا الْمُتَطَقِّلُ  
 هَلْ مِثْلُ أَخْلَاقِ الْكَرِيمِ تَخْلُقُ      لَا ، لَا ، وَلَا كَحَلِّ الْجَفُونِ تَكْحُلُ<sup>(١)</sup>

وهو يقول إن معاني شعر الشويمر راقية وألفاظه راتقة ، ويشيد بفكره ولسانه ، ويقول إنه ينسج ويحوك في شعره البليغ حللا يتيه بها الشعر عجباً ويجرّها متبخترا ، وهو شاعر الطبع لا يتكلف في شعره ، وعويصه سهل عليه دون أي عناء . ويذكر أن بلاغة البليغ سليفة فيه وفطرة لا يوجدتها التعلم ولا التكلف ، وفرق بعيد بين شعر الطبع وشعر التكلف والتصنع كالفرق بين الأخلاق الطبيعية والتخلق وكحل الجفون الطبيعي والتكحل ، وكأنه يعبر عن منهجه في الشعر . توفي سنة ١٢٤٣هـ/١٨٢٨م وسعود إليه في شعر الفخر والحماسة .

٣

## شعراء الفخر والمهجاء

### (أ) شعراء الفخر

الفخر فن شعري قديم تغنى به الشاعر الجاهلي مصورا فيه مثاليته الخلقية من الشجاعة والكرم والنجدة والمروءة وما إلى ذلك من الصفات النبيلة ، كما تغنى بمكارم قبيلته ومحامدها وبأسها في الحرب . وظل الشاعر العربي - بعد العصر الجاهلي - يفخر بأخلاقه وشيمه الرفيعة من الوفاء والحلم والصبر في الشدائد والكرم ، ونما الشعر الحماسي في الحروب الكثيرة التي اشتعلت بين العرب وأعدائهم على مر العصور . ونجده في مورتانيا على ألسنة كثيرين ، فمن ذلك قول محمد اليدالي مفاخرًا بقومه بني ديمان الحسانين<sup>(٢)</sup> :

وَنَحْنُ دِيْمَانُ أَقْطَابُ الرُّحَى وَبَنُو      دِيْمَانُ خَيْرُ بَنِي حَسَّانَ أَدِيَانَا<sup>(٣)</sup>  
 نَحْنُ اَكْسِينَا الْمَعَالِي وَالْعَلَا حُلَلًا      حَمْرًا وَدُرًّا وَيَاقُوتَا وَمَرْجَانَا  
 وَنَحْنُ كُنَّا عَلَى وَجْهِ الْعَلَا غُرُرًا      وَفَوْقَ هَامِ النَّدَى وَالْبُرِّ تِيْجَانَا<sup>(٤)</sup>  
 وَكَانَ مَنزَلُنَا فَوْقَ السَّمَاكِ كَمَا      كُنَّا عَلَى وَجْهَاتِ الدَّهْرِ خَيْلَانَا<sup>(٥)</sup>  
 حُرُنَا الْمَكَارِمَ وَالْمَجْدَ الْمُؤْتَلَّ وَالـ      عَلِيَاءَ مِنْ سَالَفِ الدَّهْرِ إِلَى الْآنَا<sup>(٦)</sup>

(١) تخلق الشخص : ظهوره بخلق لا يتطوى عليه .  
 الكحل : سواد الجفون خلقة .  
 (٢) الشعر والشعراء في مورتانيا ص ٣٤١ .  
 (٣) أقطاب الرحي : السيادة .  
 (٤) غررا جمع غرة: سادة مشهورين . الندى : الجود .  
 (٥) السمك : برج أو نجم - خيلان جمع خال :  
 الحسنة على الوجنة .  
 (٦) المؤتل : الأصيل .

فَلَا تُدُ الْمَجْدُ فِي أَعْنَاقِنَا نُنْظِمَتْ      عِقْدًا وَكُنَّا لَعِينِ الدَّهْرِ إِنْسَانًا<sup>(١)</sup>  
 لَا يَتَلَعَّنُ مَدَانَا مَنْ يَفَاخِرُنَا      فَضْلًا وَعِلْمًا وَإِيمَانًا وَإِحْسَانًا

يقول إنا قبيلة ديمان أقطاب السيادة وخير قبائل بني حسان تقوى وصلاحا ، وقد اكتسبنا حلال المعالي والعلا وحليهما من در وياقوت ومرجان ، وارتسمنا على وجه العُلا غررا بيضاء مشرقة وفوق رءوس الجود تيجانا ، وكان منزلنا فوق نجم السماك في أعلى عليين ، وارتسمنا على وجنات الدهر خيلانا وحسنات ، وحزنا المكارم والمجد الأصيل والعلواء إلى اليوم . وقد نظمت في أعناقنا قلائد المجد ، وكنا - ومازلنا - إنسان عين الدهر وجوهرته الباصرة ، ولا أحد ممن يفاخروننا يبلغ مدانا تقوى وعِلْمًا وفضلا وإحسانا . وكرر هذا الفخر في قصيدة همزية . وولتقى بعده بالمختار بن بون وسنخصه بترجمة ، ويقول حرم بن عبد الجليل الذي سبقت ترجمته مفاخرا بقومه أهل شنقيط وقد انتصروا في حرب على أهل وادان<sup>(٢)</sup>

سَمَاَ لِلْمَعَالِي مَنْ تَقَدَّمَ مِنْهُمْ      وَيَسْمُوَ عَلَى آثَارِهِ مَنْ تَأَخَّرَا  
 مَاثِرُهُمْ حَلَى الزَّمَانِ لَوْ أَنَّهُ      عَلَى صُورَةِ الْإِنْسَانِ كَانَ مَصُورَا  
 وَكَمْ مِنْ فَتَى مِنْهُمْ يَرُوقُكَ عِلْمُهُ      وَيَهْزَمُ مِنْ أَتْجَادِ وَادَانَ عَسْكَرَا  
 وَيَجْعَلُ فِي إِحْدَى يَدَيْهِ مَهْنَدًا      طَرِيرًا وَفِي الْأُخْرَى كِتَابًا مَطْرَرًا<sup>(٣)</sup>  
 يَحِبُّ الرُّدَى يَوْمَ الْوَعَى وَكَأَنَّهُ      إِذَا مَاتَ فِيهِ لَا يَزَالُ مَعْمَرَا

وهو يقول إن جميع الرجال في قومه شبانا وشيئا يسمون للمعالى وقد كثرت مآثرهم ، وإن الزمان ليتحلّى بها ، ولو كان إنسانا لاتضحّت مصورة على صدره ، وإن فتياهم لعلماء يرووقك في السلم علم كل فتى منهم ، بينما هو في الحرب بطل يهزم عسكرا من أبناء وادان . وتراه يحمل في إحدى يديه سيفاً ماضياً وفي اليد الأخرى كتاباً بهياً . وإته ليضحى بنفسه في سبيل قبيلته ، حتى لكأنه يريد الموت في الوغى من أجلها ، ومثله لا يموت بل يظل خالداً في ذاكرة قومه . ويقول الأحول البوحسنى المتوفى سنة ١٢٥٠ هـ/ ١٨٣٥ م في الحروب التي وقعت بين قبيلته وبين العلويين إثر انتصار لهم في بعض المواقع<sup>(٤)</sup> :

هُمْ جَلَبُوا الْحَرْبَ الْعَوَانَ فَلَمْ نَزَلْ      نُبِيدُ وَنُقْصِي مِنْهُمْ كُلَّ جَانِبِ<sup>(٥)</sup>  
 لَدَى مَشْهَدِ دَارَتِ رَحَاهُ فَجَرَعَتْ      صَنَادِيدُهُمْ حَتْفًا مَرِيرَ الْمَشَارِبِ<sup>(٦)</sup>  
 وَوَلَّوْا سِرَاعًا مَدِيرِينَ كَأَنَّهُمْ      بُغَاثٌ تَهَاوَى مِنْ صَقُورِ دَوَارِبِ<sup>(٧)</sup>  
 وَقَهَّرَا طَرْدَانَهُمْ وَخَضَّنَا حِمَاهُمْ      وَهَجَّنَا هَمُومَ الْمُغْصَلَاتِ النُّوَادِبِ

(١) إنسان العين : جوهرتها الباصرة .  
 (٢) الوسيط ص ٢٩ .  
 (٣) طريرا : ماضيا . مطررا : عليه بهاء ررونق .  
 (٤) الوسيط ص ٣١٠ .  
 (٥) الحرب العوان : المتجددة مرة بعد مرة .  
 (٦) دارت رحى الحرب : نشبت وحجيت . صناديدهم جمع صنديد : شجاع مفرط في الشجاعة .  
 (٧) بغاث : طائر صغير . تهاوى : طار مسرعا .

ألا إنا نَحْمِي الحِمَى ونحوطُهُ ونزداذُ صبرا تحت كلِّ النوائِبِ  
وَمَنْ شاءَ فليَنظُرْ عواقِبَ معشِرٍ جَنَى حَرَبِنَا يَزْجِرُهُ شَوْمُ العواقِبِ

و يقول إن العلويين هم الذين جلبوا هذه الحرب التي لا تزال تتجدد حربا بعد حرب ، ولا تزال تقتل فيهم ونقصى بعض كتابهم في مواقع حامية الوطيس جرعت شجعانهم موتا مريرا ، فولوا مدبرين كأنهم بغاث طار مسرعا بعضه إثر بعض خوفا من صقور مدرية ، وقد هزمتهم قهرا وتغلغلنا في حمائم وهجنا نساءهم وأعولن يندبهم . وإنا لنحمي حمانا ونقيه ، وتزيدنا الحروب صبرا وشجاعة ، وَمَنْ شاءَ فليَنظُرْ عواقِبَ من نَحارِبهم ومدى ما جنته الحرب عليهم ، وإذن يزدجر لما يرى بعينه من شَوْمِ العواقِبِ . ويقول محمد بن الطلبة اليعقوبى المتوفى سنة ١٢٧٢ هـ / ١٨٥٦ م مفاخرنا بينى عامر<sup>(١)</sup> :

وقوم والرأسُ والذرى والرؤايى  
من كهولٍ ججاجٍ وشبابٍ<sup>(٢)</sup>  
وعلومِ الكتابِ والآدابِ  
سراً ولا يَجْزَعون عند المصابِ  
بالرُضا عنهم وحُسنِ المآبِ  
من حياَ الزمنَ مُذْجِباتِ الذَّهابِ<sup>(٣)</sup>

وبنو عامرٍ همُ القومُ كلُّ الـ  
وبهاليلُ كالمصابيحِ زَهْرٍ  
دينهمُ حفظُ دينهم وعَلامهم  
لا همُ يَفْرَحون للخيرِ إن مـ  
صحب الله جمعهم وجاهم  
وسقى الله حيث أموا وساروا

وبنو عامر - فى رأى محمد بن الطلبة - هم القوم ولا قوم سواهم وهم الرأس والقمم والكثبان العالية ، وهم سادة مشرقون كالمصابيح من كهول كرام وشباب ، دينهم حفظ عقيدتهم وعلاهم وعلوم القرآن الكريم والآداب ، لا يفرحون حين يصيبهم الخير ولا يجزعون حين تنزل بهم مصيبة ، ويدعوا لله لهم أن يرضى عنهم فى اجتماعهم وتفرقهم وعند ما بهم وعودتهم ويسقى منازلهم ومسيرتهم من غيث السحب المتراكمة العظيمة . ويقول باب بن ييب المتوفى سنة ١٢٧٦ هـ / ١٨٦٠ م منفتخا<sup>(٤)</sup> .

ألوى بصبرك لاعجُ الأشواقِ  
يا مَنْ يسابقتنى ويطلب عَثْرَتى  
وإذا المسائلُ أحجمت وتمنعتُ  
إن الأحبَّةَ آذَنوا بفراقِ<sup>(٥)</sup>  
إبى - لَعْمُرك - سابقُ السِّباقِ<sup>(٦)</sup>  
وأبتُ مشاكلها على الحُدَّاقِ<sup>(٧)</sup>

- (١) الشعر والشعراء فى موريتانيا ص ٣٤٦ .  
(٢) بهاليل : سادة كرام ، ومثلها ججاج .  
(٣) حيا الزمن: مطر السحاب. الذهاب جمع ذهبة: السحابة.  
(٤) الوسيط ص ٣٦ .  
(٥) ألوى : ذهب . لاعج : راقد . آذنا : أعلموا .  
(٦) عثرتى : خطئى .  
(٧) أحجمت : نكصت وتمنعت .

أعملتُ سيفَ الفكر نحو عَويصها      فحنتُ على خِواضعِ الأعناق<sup>(١)</sup>  
فتبوح لي بسرائرِ مكتومة      حتى عن الأسطار والأوراق

وهو يقول إن واقد الأشواق في صدره ذهب بصيره ، فإن الأحبة على وشك الفراق .  
ويأخذ في الفخر بنفسه ، فيقول لمن يسابقه وينافسه ويطلب عشرته وخطأه إنه سابق السباق ،  
وإن المسائل إذا استصعبت وتمنعت مشاكلها على الخذاق فلم يستطيعوا لها حلا أعمل سيف  
فكره في عويصها فجاءته خاضعة تبوح له بأسرارها المكتومة عن ظاهر المكتوب في السطور  
والأوراق . وتتوقف للحديث عن شاعرين من شعراء الفخر .

### المختار<sup>(٢)</sup> بن بون

ولد ونشأ في منطقة تجكانت الموريتانية ، وتلمذ للمختار بن حبيب وأخذ كل ما عنده ،  
وكان يتعثر في أول أمره ، ثم فتح الله عليه واشتهر بعلمه وخاصة في العربية وجاءه الطلاب  
من كل فج ، وسمعت به قبيلة إديقب العقوية ، وهي من أهم قبائل الزوايا في مدارس العلوم ،  
فطلبت إليه أن ينزل بها ليأخذ عنه طلابها علم النحو وعلم الكلام أو التوحيد ، وكان لا يجازي  
فيهما ، وأقام عندهم مدة ، ثم حدثت بينه وبينهم مناظرات في بعض العلوم كان يقودها تلميذه  
محمد المجيدري ومولود بن أحمد وعادوا إلى استسماحه ، مستشهدين بقوله تعالى على لسان  
إخوة يوسف : ﴿ تَاللَّهِ لَقَدْ آتَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِنْ كُنَّا لَخَاطِئِينَ ﴾ فأجابهم بما أجاب به يوسف  
إخوته ، إذ قال ﴿ لَا تَتْرِبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾ . وعاد إلى موطنه  
وانثال عليه الطلاب ، وكان رفيقا بهم وجود لهم بما يملك ، وكثروا فرحل بهم إلى بحر في  
أرض تجكانت ، فشرعوا يبنون الأخصاص لسكناهم ، وكان لا يشتغل نهارا ولا ليلا  
إلا بتعليمهم . وله في النحو منظومة تسمى الاحمرار جمع فيها بين ما ذكره ابن مالك في  
الألفية وكتابه التسهيل وطبعت في مصر ، وله في النحو أيضا مقدمة ألفها - كما مر بنا -  
للمبتدئين ، وتكونت له في النحو مدرسة أهم تلاميذه فيها بلأ الشقراوى جعلناها خاتمة حديثنا  
عن علماء العربية بموريتانيا . وله من قصيدة يعتب فيها على قبيلة إديقب العقوية وتلميذه  
محمد المجيدري ويفاخر بما أسدى إليه وإلى أبنائها من علم العربية قائلا :

فلا تنكروني آلَ يعقوبَ واذكروا      ليالىَ أجلو ما على الناس أظلما  
وحين أحلى منكم كلَّ عاطلٍ      بذرِّي وأسقى باردى كلَّ أهيمًا<sup>(٣)</sup>

(١) حنت : مالت وعظفت .

ص ٣٤٢ .

(٢) انظر في ترجمة المختار بن بون وشعره كتاب

الوسيط ص ٢٧٧ والشعر والشعراء في موريتانيا

وهو يقول لهم لا تنكروني بعد ما قدمت لكم من جميل واذكروا حَلَى لطلابكم المشكلات التي استصعبت واتبهمت ، واذكروا ما زينت به من درر العلم أبناءكم وكيف أسقيتهم منه ما أطفئوا به ظمئهم إلى المعارف ، ويقول مفاخرنا بقبيلته وقومه :

ونحن ركبٌ من الأشواف منتظمٌ      أجلُّ ذا الخلق قدرا دون أذنانا  
تتلو كتابَ إله العرش كلَّ مَسَا      وكلُّ يومٍ ومَنْ نَلَقَى تَوْقَانَا  
ومن تكنُّ همةَ الأقدار نُصْرَتَهُ      لم تقدرِ الناسُ أن تُوهي له شأننا  
وهمةٌ دونها هَامُ السماءِ ومَنْ      هيمتهُ دونها هَامُ السَّمَا دَانَا<sup>(١)</sup>  
وهيئةٌ ملكتُ منها القلوبُ فلو      نظرتُ شُرُورًا إلى أقصَى الوَرَى حَانَا<sup>(٢)</sup>  
ولا يَنْهِنُهُ عن حَاجَةِ جَزَعٍ      ولا أَلْسِينُ وَإِنْ ذُو لَوْثَةٍ لَانَا<sup>(٣)</sup>

وهو يفخر بقومه أو قبيلته فخرا مبالغا فيه إذ يجعل أعظم الناس قدرا دون أدنى شخص فيهم منزلة ومكانة ، ويقول إنهم مكبون على كتاب الله يتلونه مساء وكل يوم ، وينوه بشجاعتهم وأن القبائل تحذرهم وتتوقاهم ، ويذكر أن الأقدار دائما تنصرهم على أعدائهم ، ومن تنصره لا يستطيع أحد ولا قبيل أن يضعفاه له شأننا وهم مهايون هيبة ملكت منها القلوب مخافة ، حتى إنه لو نظر إلى عدو مغضبا هلك خوفا وفزعا ، ولا يعتره إزاء حاجة يريدها جزع ، وإنه صلب لا يلين ، إنما يلين الضعيف الواهن . توفي سنة ١٢٢٠ هـ / ١٨٠٦ م وقيل بل قبل ذلك بسنوات .

محمد<sup>(٤)</sup> بن سيدي الأتبري

كان أبوه سيدي جوادا جودا عظيما إذ كان غيثا مدرارا ، وكان علما تتلمذ لحرم بن عبد الجليل وبذ أقراه ، وشغف بالتصوف فشد رحاله إلى الشيخ المختار الكنتي الصوفي ولازمه ستة أشهر ، توفي عقبها ، فلازم ابنه محمدا حتى برع في التصوف ومعرفة طريقه . ويقول الشنقيطي عن محمد بن سيدي إنه نشأ في نعمة عظيمة ورعاية من والده جسيمة ، ويقول إنه العلامة الأريب اللغوي الأديب ، ويتوسع في ترجمته إلى أكثر من عشرين صفحة ، ينشد فيها طرائف شعره ، ومما أنشده قصيدة له يسخر فيها ممن يرددون موضوعات الشعر القديمة وخاصة الوقوف بالأطلال والبكاء بالديار ونعت المرأة والخمر ويعيب عليهم كثرة السرقات الشعرية . ومن قصائده قصيدة يدعو فيها للجهاد ضد أعداء الإسلام المغيرين على السواحل الإفريقية

(٤) انظر في ترجمة محمد بن سيدي الوسيط للشنقيطي

(١) دان : عز .

ص ٢٤٣ والشعر والشعراء في موريتانيا ص ٥٧ ، ١٨٩ .

(٢) شزرا هنا : مغضا . حان : هلك .

(٣) ينهني : بكفى - لوثة : ضعف وحق .

المغربية ، وكأنه كان يُعدُّ شباب قومه لمنازلة فرنسا قبل فرضها الحماية على موريتانيا سنة ١٣٢٠ هـ / ١٩٠٣ م وفيها يفخر بشجاعة قومه وحمايتهم للإسلام قائلاً :

وفتيان يرون الضيم صابا وطعم الموت خُرطوما عَقاراً<sup>(١)</sup>  
أحبوا الملة البيضاء فكانوا عليها من مُرادها غياراً  
بأيديهم مذبذبة طوال تُرى الأقران أعماراً قصاراً<sup>(٢)</sup>  
جموعٌ تهزم الأعداء قهراً فتركهم جديساً أو وياراً<sup>(٣)</sup>  
بنصر الله واثقةً يقينا فلا تخشى من الخلق الخذارا  
لها إعلاءً كلمته مرامٌ فلا غنماً تروم ولا افتخارا

وهو يقول إن شباب قومه فتيان أشداء يرون الذل مرا لا يطاق شرايه ، أما الموت فى ميدان الحروب فيرونه لذيقاً لذيقاً أو أعظم لذة . وقد أحبوا الدين الخفيف حتى إنهم ليغارون عليه غيرة العاشق على معشوقته ، وإنهم لشجعان بوسائل بأيديهم سيوف ماضية ، تُرى الأقران أن أعمارهم قصار بما تقطع من رقابهم ، وإنهم لجموع تعودوا التصر على أعدائهم حتى ليبدوهم عن آخرهم فيصبحوا فى عداد الأمم البائدة مثل جديس ووبار ، ودائماً يتقون فى نصر الله لا يخشون أحداً ، وقصدتهم إعلاء كلمة الله ودينه القويم دائماً ، ولا غنما يريدون ولا افتخارا . ويعرض فى قصيدة طويلة مذكرته لزملاء أدياء يقفون على مذاهب الفقهاء المختلفة ومذهبي الأشعري وإمام الحرمين الجويني ومنازع الفرق الصوفية وأقوال الخليل وسيبويه والكوفيين وغيرهم فى النحو ، ويتدارسون شعراء الجاهلية الستة المشهورين : امرأ القيس وزهيراً والناطقة وعلقمة وطرفة وعنترة ، والمرقشيين الأكبر والأصغر والأعشى : أعشى قيس وأعشى باهلة والأعميين : بشاراً وأبى العلاء ، وأبى نواس والمتنبي . وهى وثيقة مهمة بما كان يتدارسه الشباب الموريتاني من العلوم والشعر والشعراء جاهليين وإسلاميين وعباسيين ، ثم يقول مفاخرًا بشمائله :

ومن يك راعباً فى القرب منى يجدننى دون ماء المقلتين  
ومن يؤثر قلاى فليس شىء يواصلُ بينه أبداً وبينى  
ألاحظُ من خليطى كل زين كما أغضى له عن كل شين  
ولا أصفى إلى العوراء حتى يُرى أنى أصمُّ المسمعين<sup>(٤)</sup>  
وما جهلُ الجهول بمستفزي ومالى بالدنيئة من يدين

(١) الضيم : الهوان . الصاب : المر . الخرطوم : العقار : الخمر .  
(٢) العوراء : الكلمة السيئة . المسمعين شئ مسمع :  
(٣) جديس ووبار : قبيلتان من العرب البائدة .  
(٤) الأذن .

(١) الضيم : الهوان . الصاب : المر . الخرطوم : العقار : الخمر .  
(٢) من ذرب السيف والرمح : صار ماضياً .

وهو يفخر بأن من يوده يجده أقرب إليه من ماء عينيه ، ومن يوتر بغضه يقطع كل صلة تصله به ، ولا أرى من صديقى إلا ما يزينه وأتغاضى عن كل ما يشينه ، ولا أصفى إلى كلمة سيئة تقال عن أحد ، وأرى - حين تقال - كأنى أصم لا أسمع شيئا ، ولا تستفترنى حماقة الأحقق ولا أترف عملا سيئا ولا خسيسا ذميما . وكان الشعر يتدفق على لسانه ، توفي سنة ١٢٨٦ هـ / ١٨٧٠ م .

### (ب) شعراء المهجاء

المهجاء فن قديم منذ الجاهلية كانوا يصبونه على خصومهم وخصوم قبائلهم ، ولم يكد يسلم منه شريف فى الجاهلية ، لكثرة ما كان بين القبائل من حروب ومنازعات . وبمقدار شرف القبيلة وأمجادها ومآثر ساداتها وفرسانها ومناقبهم يكون هجاؤها وما ينزل بها من سهامه ، واتصل هذا المهجاء فى الإسلام وطوال العصور ، والمظنون أنه كان كثيرا فى موريتانيا بسبب كثرة الحروب بين عشائرها وقبائلها واستخدامه سلاحا يفض من شأن القبيلة المعادية وساداتها وشيوخها . ويقول الدكتور محمد المختار إنه تجنب أن يكتب منه فى كتابه الشعر والشعراء فى موريتانيا خوفا من إثارة الحفيظة فى المجتمع الموريتانى المعاصر ولم يصرح بذلك الشنقيطى فى كتابه الوسيط فى تراجم أدباء شنقيط ، غير أنه - فيما يبدو - كان يرى رأى الدكتور محمد المختار ، ولذلك لم يأت منه إلا بأمثلة قليلة ، حتى عند شاعر هجاء كبير من شعراء الجيل الأول فى صدر القرن الثانى عشر الهجرى هو المصطفى بن أبى محمد المشهور بلقب بوفمين<sup>(١)</sup> المجلسى ، يقول : « كان هجاء ما نجا منه أحد » ثم يذكر أنه هجا إيدا بلحسن بقصيدة طنانة مطلعها :

أجسب أن لا يزأر الأسدُ الورْدُ      ذئابٌ عَوَتْ لِمَا تَغافلَتِ الأَسَدُ<sup>(٢)</sup>

ومنها :

وعقلُ الذى منهم يَشُدُّ عمامةً      كعقل الذى منهم يُشَدُّ له المَهْدُ<sup>(٣)</sup>

ولا يضيف إليه أبياتا أخرى من القصيدة ، ويذكر الشنقيطى أنه نزل يوما عند قبيلة إنتاب فى موضع يقال له إنجول فلم يكرموا ولا اكرثوا به فقال يهجوهم :

دهرُ الدهارير لا أَمَتُ فيه لدى      إنتابَ يوماً ولا يقرب إنجول<sup>(٤)</sup>  
يومُ الإقامة فيهم خلته ظمأً      يومُ القيامة إذ يحكيه فى الطول  
حتى تذكرت أن الناس قاطبةً      إذن تُسألُ وأنى غيرُ مسؤلٍ

(٣) الذى يشد عمامة : الشيخ .

(١) انظر ترجمته عند الشنقيطى ص ٣٤٨ .

(٤) دهر الدهامير : أول الدهر فى الزمن الماضى .

(٢) الورد : الأشقر .

وهو يقول إنه لن يقيم مدى الدهر عند قبيلة إيتاب ومنازلها في إيتجول ، وقد أقام لديهم يوماً خاله لطوله - وقد ظمىء فيه ظمناً شديداً - يوم القيامة ، وظن أن الناس ذهبت تسأل وبقي وحده . وقال في إدوداي إحدى عشائر بني ديمان - وقد نزل عندها - يهجوها :

يا رَبُّ لَيْلٍ بِهَيْمٍ أَلَيْلٍ دَاجٍ      قَدِ بَيْتٌ فِي ضَيْعَةٍ لَدَى إِدُودَاجٍ<sup>(١)</sup>  
 حَتَّى إِذَا مَا دَنَا الْإِصْبَاحُ نُبْهَنِي      وَغَدَّ عَلَى لَقْمَةٍ فِي قَعْرِ مَجْأَجٍ

وقلب الياء من قبيلة إدوداج جيما محاكاة لبعض لغات العرب في هذا القلب ، وهو يقول إنه بات في ليل بهيم مظلم أشد الظلام بضیعة عند إدوداي ، حتى إذا اقترب الصباح نبهه وغد لقيم على لقمة غير سائعة في قعر إيتاء يمج ما فيه ويلفظه لسوته .

ويسوق الشنقيطي للمأمون العقبوي المتوفى سنة ١٢٣٨ هـ/ ١٨٢٣ م مقطوعة من هجائه للمختار بن بون حين وقع الشقاق بين المختار وعصابة البعقوبين وباروا جميعاً يداً واحدة عليه كما مر في ترجمته ، وله يقول موهناً علمه بمنطق أرسطو وأحاديث الرسول<sup>(٢)</sup> :

أَكْرَبَ حَزْكَ لَوْ دَرَيْتَ مَفْصِلَهُ      فَادْرِ الْمَفَاصِلَ قَبْلَ الْحَزِّ وَاسْتَفْقِ<sup>(٣)</sup>  
 مَا الدِّينُ إِلَّا الَّذِي تَسْعَى لَتَوْهِنُهُ      آيُ النَّبِيِّ وَأَثَارُ الْهَدْيِ الْعَبْقِ<sup>(٤)</sup>  
 لَا كُلُّ خَبْطٍ عَنِ الْيُونَانِ مَبْتَدَعٌ      قَدْ سُنَّ بَيْنَ أَصُولِ الدِّينِ مُخْتَلَقٌ  
 تَحْمِي قَوَاعِدَ رَسْطَالِيْسَ تَحْسِبُهَا      دِينًا لَكَ الْوَيْلُ نَبْهَنَاكَ فَاسْتَفْقِ  
 إِنْ كُنْتَ تَوْرِدُ نَسْخًا أَوْ مَعَارِضَةً      لِذِي الْأَحَادِيثِ فَادْكُرْ مَا تَرَى وَسُقِ  
 وَإِنْ تَكُنْ قَاصِرًا عَنِ كَوْنِهَا ثَبَّتْ      فِيمَا حَوَى شَرْحَهُ الْحَفَاطُ فِي السُّورِقِ  
 فَاعْرِفْ مَقَامَكَ فِي دَرْكِ الْعُلُومِ وَلَا      تَعْرَضْ لِمَنْ خَاضَ فِيهَا شَاسِعَ الشُّفْقِ<sup>(٥)</sup>

وهو يصفه بأنه أكثر الحزب ولا يصيب المفصل ، وينصحه أن يعرف المفصل حتى يحسن الحزب ، ويقول له ما الدين إلا الذي تسعى في توهينه من معجزات الرسول وآثار هدها العطر لا هذا المنطق المبتدع عن اليونان والذي تزجون به في أصول الدين ودراساته ، لذلك تدافعون عن قواعد أرسططاليس المنطقية وتتخذونها ديناً لكم وشعاراً . ثم يقول إن كانت الأحاديث التي تذكرها وتدرسها للطلاب مكتوبة أو مروية فاذا ذكر ذلك وسق أساتيدها ، وإن كنت تعجز عن إثبات سندها في كتب الأحاديث وشروحها فاعرف مقامك في معرفة العلوم ولا تتعرض لمن تعمقها ووقف على نواحيها وجوانبها المختلفة . والمأمون تجاوز حده في هذا الهجاء فلم يكن المختار بن بون ضعيف الأحاديث ولا كان واهن الدين ، وإعجاباً بمنطق أرسطو لا يشينه ، فقد كانت دراسته عامة في جميع البيئات الإسلامية . ويصفه الشنقيطي في ترجمته بأنه « تاج

(١) بهيم : مظلم . ليل : شديد الظلمة . داج : معتم .  
 (٢) الشنقيطي ص ٢١٧ .  
 (٣) العقب : العطر .  
 (٤) الشفق : جمع شفة : الناحية يريد أنه متوسع في  
 (٥) المفصل : ملتقى كل عظمين في الجسد .  
 العلوم .

العلماء.. ولا يوجد عالم بعده إلا وله عليه الفضل الجزيل بما استفاد من مصنفاته ، وتلقى من مسنده» .

#### ٤

### شعراء الرثاء

للرثاء عند العرب - منذ الجاهلية - ثلاث صور : صورة الندب وبكاء الميت والنواح عليه من ذوى القربى، وصورة التأين ورسم فضائل الميت ليبان خسارة القبيلة أو المجتمع فيه ، وصورة العزاء وبيان أن الموت كأس يتجرعه البشر جميعا ، فالكل ميت ولا بقاء لأحد ، وكثيرا ما تختلط هذه الصور فى المراثية الواحدة. وفى كل عصر وفى كل قطر تلقانا عشرات المراثى بل أحيانا مئاتها ، وهى كثيرة فى موريتانيا ، وقد عرض منها المرحوم الشنقيطى والدكتور محمد المختار عشرات ، ونعرض بعض أمثلة منها ، من ذلك قول ابن رازكه يرثى أعمر آكجيل التروزي<sup>(١)</sup> :

هو الموت عَضْبٌ لا تخون مضاربه	وَحَوْضٌ زُعَافٍ كُلُّ من عاش شاربه <sup>(٢)</sup>
وما الناس إلا واردوه فسابق	إليه ومسيوقٌ تَخْبٌ نَجَائِبُه <sup>(٣)</sup>
يحبُّ الفتى إدراكَ ما هو راغب	ويدركه - لأبْدُ - ما هو راهبُه
وكم لابسٍ ثوبَ الحياة فجاءه	على فجأةٍ عادٍ من الموت سالبُه
وما صانَ حَبْرًا علمُه وكتابه	ولا ملكا أعلامُه وكتابه

وهو يبدأ مرثيته بالعزاء ، فالموت سيف مصلت على رقبة كل إنسان ، لا تخونه مضاربه ، وحوض سم قاتل ، كل من عاش على ظهر الدنيا لا يد شاربه ، والناس جميعا واردوه ، سابق إليه ومسيوق تعدو به ركابه . ويتعلق الإنسان فى ديناه بما يرغب فى تحقيقه ويدركه الموت الذى يرهبه ، وكَم من لابسٍ لثوب الحياة يفجوه عادٍ من الموت يسلبه عنه ويخلعه . ولا يصون العالم الجليل منه علمه وكتبه ، ولا يصون الملك راياته وكتابه . ويرثى القاضى أحمد بن يوسف البوحسنى ويقول فيه مؤثرا<sup>(٤)</sup> :

فتانا ومفتينا المصيبُ وشيخنا	ونيراسنا فيما بهمَّ ويُسدِفُ <sup>(٥)</sup>
بصيرٌ بحلُّ المشكلات كأتما	يُكاشِفُ عن أسرارها ثم يكشِفُ
تملُّكُ أطراف القضاءِ وفقههُ	وما هو إلا مالكٌ أو مطرُفُ <sup>(٦)</sup>

(٥) نيراس : مصباح . يسدِف : يظلم .  
(٦) مالك : الإمام مالك بن أنس . مطرُف : قاضى صنعاء المشهور .

(١) الوسيط للشنقيطى ص ١٥ .  
(٢) عَضْب : سيف قاطع . زُعَاف : سم قاتل .  
(٣) تَخْبٌ : تعدو . نَجَائِبُه : ركابه .  
(٤) الوسيط ص ١٨ .

وهو يصفه بأنه المفتي المصيب والمصباح الذي يضيء ظلمات المشكلات العلمية ، وكأتما يُكشَفُ له أسرارها ويكشفها للناس ، وقد امتلك فتاوى القضاء وفقهه في أحكامه حتى لكأنه مالك مفتى المدينة أو مطرف قاضي صنعاء . ويقول محمد اليدالي الذي مرت ترجمته مؤنثا المختار بن الفاضل<sup>(١)</sup> :

لهفي على لَوْدَعِيْ ذِي نَدَى وَتَقَى وَهِيَّةَ تَمَلُّاَ الْأَفْكَارَ وَالْحَدَقَا<sup>(٢)</sup>  
 وَذِي مَعَارِفَ رَبَّائِيَّةٍ وَهُدَى وَهِيَّةَ عَلَتِ الْعِيُوقَ وَالْأَفْقَا<sup>(٣)</sup>  
 عِلْمُ الْحَقِيْقَةِ وَالشَّرِيْعَةَ اجْتَمَعَا لَهُ فَاضَحَى يُرَى مَنْ بِهِ التَّحْقَا  
 وَبِحَرِّ جَوِيْدٍ وَعِلْمٍ زَاخِرٍ وَإِذَا مَا مُعْتَفَوْهُ أَتَوْهُ فَاضٍ وَانْدَقَا<sup>(٤)</sup>  
 شِعَارُهُ الْبِرُّ وَالتَّقْوَى وَذَيْدُهُ رِضَا الْإِلَهِ ، خَدِيْمُ الضَّيْفِ إِنْ طَرَقَا<sup>(٥)</sup>

واليدالي يتحسر على موت ابن الفاضل ويقول إنه حاد الذكاء كريم صالح ، تملأ هيئته العيون والأذهان ، متصوف له معارف إلهية وهدى وعزيمة تملو الأفق والنجوم ، وقد اجتمع فيه علم الشريعة والحقيقة الصوفية ، وبهما كان يربى تلاميذه ، وهو بحر زاخر للعلم والجدود . وإذا ما أتاه سائلوه فاض عليهم بحر جوده وعلمه وتدفق من كل جانب ، شعاره الإحسان والتقوى ودأبه رضا الإله ، وإن ألم به ضيف كان خادمه : فرط جود وكرم . ويقول حرم بن عبد الجليل في رثاء مولود بن أجفج اليعقوبي<sup>(٦)</sup> :

أَتَعْنُونَ مَوْلُودًا وَمَا انْقَضَ كَوْكَبٌ وَلَا فَارِقَ النَّوْرِ الْغَزَالَةَ وَالْبَدْرَا<sup>(٧)</sup>  
 وَلَا زَلْزَلَتْ زَلْزَالَهَا الْأَرْضُ يَوْمَهُ وَمَا أَبَدَتْ الْأَشْرَاطُ آيَاتَهَا الْكَبْرَى<sup>(٨)</sup>  
 وَمَا شَغَلَ النَّاسَ الْبُكَاءَ عَنْ أُمُورِهِمْ كَأَنَّ صُرُوفَ الدَّهْرِ مَا أَحْدَثَتْ أَمْرًا<sup>(٩)</sup>  
 لَقَدْ غَيَّبَتْ مَنْ غَابَ عِنْدَ مَغِيْبِهِ فَوَاضِلُ شَيْئِي لَا نُطِيقُ لَهَا حَصْرًا  
 وَطَوَيْتِي لِقَبْرِ أَوْدَعَوْهُ عِظَامَهُ فَيَا لَيْتَ أَنِّي كَانَ صَدْرِي لَهُ قَبْرًا

وحرَمَ يَنْدُبُ صَدِيْقَهُ مَوْلُودًا وَيَتَفَجَّعُ عَلَيْهِ وَيَبْلُغُ مِنْ حَزْنِهِ أَنَّهُ يَعْجَبُ كَيْفَ لَمْ يَنْقُضْ كَوْكَبٌ وَلَا فَارِقَ النَّوْرِ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ وَلَا زَلْزَلَتْ الْأَرْضُ وَلَا أَبَدَتْ السَّاعَةَ أَشْرَاطُهَا وَعِلَامَاتُهَا الْكَبْرَى جَزَعًا عَلَى مَوْتِ مَوْلُودٍ ، كَمَا يَعْجَبُ أَنَّ النَّاسَ لَمْ يَشْغَلْهُمُ الْبُكَاءُ عَلَى الْمَيْتِ الْعَظِيمِ عَنْ شُؤْنِهِمْ ، كَأَنَّ صُرُوفَ الدَّهْرِ وَنَوَائِبَهُ مَا أَحْدَثَتْ شَيْئًا ، مَعَ أَنَّهَا غَيَّبَتْ مَنْ لَا يَسْتَطِيعُ أَحَدٌ

(٦) الشعر والشعراء في موريتانيا ص ٢٩٦ .

(١) الشعر والشعراء في موريتانيا ص ٢٩٤ .

(٧) الغزالة : الشمس .

(٢) لودعي : عالم ذكي . ندى : كرم .

(٨) الأشراط : علامات الساعة .

(٣) العيوق : نجم .

(٩) صروف الدهر : خطوبه ونوائبه .

(٤) محتفوه : سائلوه وطلالو جوده .

(٥) ديلنه : دأبه وعادته .

إحصاء فواضله ، وطوبى لقبر أودعوه عظامه ، ويتمنى أن لو كان صدره له قبراً ، وهو بيت رائع . ويقول محمد العلوى المتوفى سنة ١٢٦٤ هـ / ١٨٤٨ م - وكان شيخ طريقة وعالماً فى الفقه والعربية والبلاغة - راثياً الشيخ محمدا الحافظ العلوى قاتلاً<sup>(١)</sup> :

سهرتُ جفونكُ والمصاب مسهدُ	يرثى ليلتك السليمُ الأرمدُ <sup>(٢)</sup>
ورثتُ لك الخنساءُ ، بعدُ متممُ	ورثى ليديّ يوم فارقَ أريدا
لمصيبةِ صدمتُ فؤادى صدمةُ	كادتُ بناتُ الجوفِ منها تصعدُ
وجرى الدموعُ على الخدودِ كأنها	نظمتُ جرى من سيلكه متبددُ
وتصدعتُ كيدي لها وكأتما	بجوانحى منها حريقُ موقدُ
وإذا بكيتُ شجى عليه فإنه	تبكى وتندبه جموعُ حقدُ <sup>(٣)</sup>
وبكى عليه ليله ونهاره	والصومُ يبكى والتهجدُ يرعدُ
وبكتُ بقاعُ كان يعبدُ ربه	فيها فيركع ما يشاء ويسجدُ

وهو يقول إنه لم يغمض له جفن حين سمع المصاب ، وكأتما كل ندب وكل تفجع فى ميت كان فيه ، حتى لكأنه لدغ مرات، وكان تفجع الخنساء على أخيها صخر ، وندب متمم لأخيه مالك بن نويرة ، وبكاء ليدي لأخيه أريد، كل ذلك كان رثاءً حاراً للمصيبة التى نزلت به وصدمة صدمة كادت أمعاؤه منها تصعد، وجرت دموعه على خدوده كأنها سلك ، تددت حباته ، وتشققت كبده ، وكأتما فى جوانحه حريق موقد . ويقول إن الجموع من حوله تبكيه ، ويبكى عليه ليله ونهاره ، وصومه نهاراً وتهجده ليلاً ، ويستمر يذكر أن كل شىء يبكيه ، تبكيه صلاته ووضوئه ومسجده والكتب والأقلام والدواة والمصحف وبقاع الحرمين الطاهرة ويعدها مكاناً مكاناً ، ثم يقول - كما فى البيت الأخير - إنه عبد ربه فيها وركع وسجد له طويلاً . والمرثية بديعة . ولمحمد بن محمدى العلوى يرثى الشيخ مولود فال منشداً<sup>(٤)</sup> :

ما لراجى الخلود نيلُ الخلودِ	إن وردَ المنون حتمُ السورودِ
أطيبُ الحياة والشيخُ أسمى	غيبته مغيباتُ اللُهودِ
إن مالى من اصطبارِ تولّى	إذ تولّى إنسانُ عينِ الوجودِ
طودُ علمٍ ينحوه كلُّ مریدِ	من جماه يفرُّ كلُّ مریدِ <sup>(٥)</sup>
وإذا سُدَّ بابُ علمٍ عويصُ	كان مفتاحَ بابهِ المسدودِ
علمُ الأصلِ والفروعِ إلى أن	ليس فى العلمِ يتغى من مزيدِ

(٤) الشعر والشعراء فى موريتانيا ص ٣١١ .

(٥) مرید : شيطان .

(١) الشعر والشعراء فى موريتانيا ص ٣٠١ .

(٢) السليم : الملدوغ . الأرمد : من أصاب عينه الرمد .

(٣) حقد : حاشدة .

وهو يقول إن الخلود لا يناله أحد ، إذ كلُّ وارء على حوض الموت مسلم روحه إلى ربه ، ويقول لِحياة الحياة أصبحت لا تطيب وقد مات الشيخ وعيَّته اللحد ، وقد تولَّى عنى صبرى إذ فارقتى إنسان عين الوجود ، وهى مبالغة واضحة . ويذكر أنه طود علم كان يومه مريدون كثيرون ، ومن حماه وتقاه يفر الشيطان المريد ، وإذا سُدَّ باب علم عويص معقد كان مفتاح بابه المسدود فما يلبث أن يفتح على مصاريمه . وقد علم الأصول والفروع علما لا يلحقه فيه لاحق . وله مرثية أخرى فى محمد الدنج التندغى . ويقول الشيخ سيديا الكبير المتوفى سنة ١٢٨٤ هـ / ١٨٦٨ م فى رثاء الشيخ الصوفى المختار الكنتى وزوجه الصالحة<sup>(١)</sup> :

جادت سحائبُ رافة الرحمن بهواملِ التكريم والرضوان<sup>(٢)</sup>  
 وبوصفٍ محضِ الوُدِّ والزلفى على جدَّين حلَّ حشاهما الشيخان<sup>(٣)</sup>  
 لاحا وأخلاكُ الجهالةِ فحمةً وملايسُ البدعِ الجِدادِ مشان<sup>(٤)</sup>  
 والدين منهدمِ القواعدِ مَرَكْسٌ بأخامِصِ الطغيانِ والعصيان<sup>(٥)</sup>  
 فعدا منارُ الدين بعد تهديمِ ثبَتِ الأساسِ مشيدُ الأركان

وهو يدعو للشيخ وزوجته بأن تهمنى عليهما سحائب رافة الرحمن بمنهر التكريم والرضوان وبمحض الود والزلفى على قبريهما ، ويقول إنهما ظهرا ودياجى الجهالة فحمة ، وملايس البدع المحدثنة لا تحصى ، والدين منهدم القواعد وعاليه مَرَكْسٌ بباطن أقدام الطغيان والعصيان ، فأصبح بفضلهما منارُ الدين راسخ الأساس رفيع الأركان . ويقول محمد بن حنبل الحسنى فى رثاء الشيخ سيديا الكبير<sup>(٦)</sup> المذكور آنفا :

أرى الملةَ البيضاءَ جَلَّ مُصابِها ففاضت مآقيها وطالَ انتحابُها<sup>(٧)</sup>  
 وقاستُ بفقد الشيخِ وجدَّ مصابِهِ بواحدِها لما تولَّى شبابُها  
 وأظلمَ وجهُ الأرضِ حتى كأنما تردَّتْ مدادا غوطِها وحِدابُها<sup>(٨)</sup>  
 وزلزلَ أقطارُ البلادِ فأصبحتْ شواهِقُها مهترَّةٌ وهضابُها  
 وزُرعَ أطمِ الهدى وحصونهُ وقوَّضَ فسطاطُ العلا وقِيابُها<sup>(٩)</sup>

وهو يقول إن وفاة الشيخ سيديا مصاب كبير لشريعة الدين الخفيف ، وكأنما قاست حزن سيدة فقدت واحدا أو ولدها الواحد ويقول إن وجه الأرض أظلم وارتدت رياضها

(١) الشعر والشعراء فى موريتانيا ص ٣١٦ .  
 (٢) هوامل : مائل .  
 (٣) جدَّين : قيرين .  
 (٤) ماثان : تتكرر وتتردد .  
 (٥) مَرَكْسٌ : مضروب . أخامِص جمع أخمص : باطن .  
 (٦) الشعر والشعراء فى موريتانيا ص ٣٢٣ .  
 (٧) الملة البيضاء : الدين الخفيف وشريعته .  
 (٨) غوطها : رياضها . حدابها : كتبها .  
 (٩) الفسطاط : الخيمة الكبيرة .

وكتابتها مدادا أسود شديدا ، وزلزلت أنحاء البلاد واهتزت جبالها وهضابها وزعزعت منازل الهدى وحصونه وهُدِّمت خيام العلا وقيابها . وهى مبالغت شديدة فى الرثاء تعبيرا عن مدى الحزن الذى أصاب الشاعر والناس بوفاة هذا الشيخ الصوفى . وتوقف قليلا إزاء أحد شعراء الرثاء .

### باب (١) بن أحمد ييب العلوى

كان أبوه عالما فاضلا ناسكا مشارا إليه - كما يقول الشنقيطى - فى بلده وجيله ، ملحوظا بعين التعظيم فى معشره وقبيله . ويقول عن باب إنه العالم الأوحى الذى أغار ذكره وأنجد . ومررنا أنه أكمل كتاب الديباج فى تراجم فقهاء المالكية من القرن الثامن الهجرى حتى القرن الثانى عشر . ولما كُفِّ عمه - وكان قاضيا - أنه عنه فى قراءة الحديث للطلاب والناس حتى وفاته ، واشتد الخلاف بينه وبين ابن خاله حُرْم الذى مرت ترجمته فى مسألة من مسائل الوقف ، وانضم إلى كل منهما طائفة من العلماء والشعراء ، وكان فقيها محدثا ناسكا . ويقول الشنقيطى عنه : قلما مات أحد من يشار إليه فى قبيلته إلا رثاه ، توفى سنة ١٢٧٦ هـ / ١٨٦٠ م . ومن قوله فى رثاء عبد الله بن حرمة بن الصبار العلوى :

كان عبد الإله بَرًّا تقيًّا      نَزَّةَ النَّفْسِ طاهرَ الأثوابِ  
 صحب الصالحين وهو صغيرٌ      لم يَتَلْ منه عنوانَ الشبابِ  
 كان بَرًّا بأمه وأبيه      ورفيقا بجاره ذى الجَنابِ (٢)  
 وهو فى لزبةِ الزمان ربيعٌ      ذو جِفانٍ كأنهنَّ جوايى (٣)  
 كلُّ يومٍ تراه يدرسُ علماً      وهو بالليل قائمُ المحرابِ

يقول باب إن عبد الله كان صالحا تقيا نزيها عن الصغائر طاهر الأثواب ، صحب الصالحين ناشتا فى شبابه ، وكان بارا بأمه وأبيه ورفيقا بجاره البعيد فضلا عن القريب . وفى أيام الشدة والجدب يصبح ربيعا للناس وتكثف مائدته لهم بقصاع كالحياض مترعة بالطعام ، وفى كل يوم يدرس للطلاب والناس علما وفى الليل يخلص لربه مصليا فى المحراب . ويقول فى رثاء محمد بن أحمد الحسنى :

(١) انظر فى ترجمة باب وشعره الوسيط ص ٣٤ والشعر والشعراء فى موريتانيا ص ٣٠٦ وما بعدها .  
 (٢) ذى الجنباب : يريد البعيد .  
 (٣) لزبة : شدة . الجفان جمع جفنة : القصعة .  
 الجوايى جمع جاية : الحوض .

فعلُ الجليلِ جميلٌ فازْضَ ما فعلاً  
 واذكُرْ مصيبةَ خيرِ الخلقِ تَمَلُّ بها  
 به تَيْتَمٌ - إذ أُودَى - بنو حسنٍ  
 لو ساعدتني القوافي ما تركتُ لمن  
 رَمَى بقلبك شَجْوًا أو رمى جَذَلًا<sup>(١)</sup>  
 إذا عليك مُصابٌ معضلٌ نَزَلًا<sup>(٢)</sup>  
 يُنَمُّ ابنُ يومينِ والعافون والنزَلًا<sup>(٣)</sup>  
 يرثي مقالا ولا يشفى لى الغللا<sup>(٤)</sup>

وباب يدعو للرضا بقضاء الله وكل ما ينزله بالإنسان من حزن أو فرح ، ويقول إن مصيبة الأمة في خير الخلق رسولها الكريم يجعل كل فرد فيها يتعزى بها عن كل ما ينزل به من مصاب فادح أو كما يقول شديد عسر . وقد أصاب باليتيم من يعولهم من بنى حسن والسائلين والضيفان . ولو ساعدته القوافي ما ترك لراث أو نادب مقالا ، ومهما قال فلن يستطيع شفاء ما يكتنه من حرارة الحزن عليه . ويقول في رثاء زوجته مريم بنت محمد مولود :

هَمٌّ تَأْوِيهِ من بعد ما هَجَعَا  
 أضْحَى الفؤادُ به من لوعةٍ خَيْلًا  
 يَكِي على مريمِ يوما وَحَقُّ له  
 يا ليلةً بِتَها جَنَّبَ المليحةَ لم  
 حتى دعاها إلى المولى المهيمن ما  
 يا ربُّ مريمُ قد وافَتكِ وافدةً  
 قد بات منه يراعى النجمَ مَكْتِنًا<sup>(٥)</sup>  
 والعين تسكُبُ من تَدْرَافُها دُفْعًا  
 أن لا يزال عليها باكيًا وَجِعًا  
 أهنأ وقد نام عنى القومُ مضطجعًا  
 يدعو الملوكِ ويدعو الأعصمَ الصُدْعَا<sup>(٦)</sup>  
 فاجعلْ لها جَنَّةَ الفردوسِ مُرْتَبَعًا

ومريم زوجة باب هصر الموت غصن شباها في سن الواحدة والعشرين وقد تركت ولديها فاطمة وأحمد وقلبه مشغوف بهما ، وهو يقول إن هماً ظل يعاوده بعد هجوعه قليلا ، وظل سهران يراعى النجوم في غروبها وكأنما أصابه لشدة لوعته حَبَلٌ ، وعينه تذرِفُ الدمع مدرارًا ، ويكِي على مريم بكاءً حارًا ويتوجع وما كان عليه أشد من ليلتها الأخيرة وهو بجوار محبوبته يتجرع الحزن وقد نام الناس جميعا ، ودعاها إلى ربها الموت الذى يدعو الملوك والوعول والوحوش الفتيّة ، ويدعو لزوجته ره أن يدخلها فراديس الجنان . ويستمر فى القصيدة ويدعو الله أن يلطف بولديها وأن تصلى عليها الملائكة وحاملو العرش والأنبياء والمسلمون فى صلاة الجمعة وحجاج بيت الله الحرام ، ويسترجع مستسلما للقضاء . والمرثية مؤثرة بالغة التأثير .

والحزن .

(١) شجوا : حزنا . جذلا : مسرة .

(٥) مكتنا : مائلا إلى الغروب .

(٢) معضل : شديد أو لا يمكن البرء منه .

(٦) الأعصم الصدع : الوعل الفتى التوى .

(٣) العافون : السائلون .

(٤) الغللا جمع غلة : حرارة العطش وتستعار لئار الوجد

## الفصل الرابع

### طوائف من الشعراء

١

#### شعراء الغزل

فلما يخلو شعر شاعر موريتاني من أبيات ومقطوعات - وأحيانا قصائد - تصف تعلقه بفتاة فى شبابه ، غير أن شاعرا لم يعيش لوصف الحب وتباريحه ، مثل شعراء الغزل العذرى فى عصر بنى أمية من أمثال قيس بن ذريح وجميل أو مثل شعراء الغزل الصريح أمثال عمر بن أبى ربيعة والعرجى ، إنما هى خواطر تلم بالشاعر الموريتاني إزاء عاطفة الحب الخالدة فى الحياة الإنسانية . ودأب الشعراء على محاكاة أسلافهم من شعراء العرب فى التقديم لقصائدهم الطويلة بذكر الأطلال ووصف الأظمان وما يتخلل ذلك من النسيب . ولن نقف فى عرضنا للغزل الموريتاني عند هذا الجانب لأنه - فى واقعہ - محاولة لمحاكاة القدماء وقلما حمل تصوير الموجدة الحقيقية إنما نعرض طائفة بديعة من أشعار الغزل التى انتخبها الدكتور محمد المختار ولد إياه فى كتابه الشعر والشعراء فى موريتانيا ، ومن أنشد له مقطوعات وقصائد طريفة فى الغزل محمد بن حمدى وله من قصيدة بارعة<sup>(١)</sup> :

فيمن أهيْمُ بها لاموا	فيمن أهيْمُ بها لاموا ولو هاموا
ماسْفُهتْ من ذوى الأخلام أحلامُ	هام الفؤادُ يَمَنُ لولا ملاحَتها
بادٍ ومن سَقَمِ الأَجفانِ أسقام <sup>(٢)</sup>	تلك التى مِنْ لَمَها مَسْنَى لَمَّ
شوقى وما صدق العُشاقُ إن ناموا	نامَ الأَحلاءُ عن ليلى وأرقتى
تديه فى سِنَةِ الوَسنانِ أحلام	مَنْ لى بوصلِ وإن كان الوصالُ بما
أن تمنح الوصلَ للمشتاقِ أيامُ	إن تمنع الوصلَ أيامُ لنا فَعَسَى

وهو يقول إن من حولي يلوموننى فى هيامى بصاحبتى ولو رأوا جمالها الفاتن يوما لهاموا بها مثلى وكفوا من لومهم ، وقد هام الفؤاد بها لحسنها ولولاه ما سَفِهتْ عقول العقلاء الذين شغفوا بها حبا . وتلك هى التى مَسْنَى من جمال شفتيها وفتنتها ما يشبه الجنون وأصابنى من سقم أجفانها ما لا يحد من الأسقام . ويعجب أن نام الأَحلاء وهو موزَّق مسهَّد لأنه عاشق ،

أر شدة .

(١) الشعر والشعراء فى موريتانيا ص ٩٦ .

(٢) لها : سمره شفتيها . لم بطرف من الجنون

والعاشق لا يصدق فى عشقه إن نام . ويتمنى وصل صاحبه ، ويقول ما أشبهه بالأحلام يراها  
الوسنان فى نعاسه ، ويقول إن كانت أيام لنا لم تسمح بالوصال فعسى أيام أخرى تسمح  
باللقاء . وكان يعاصره محمد بن طلبة وسنفرده له ترجمة . ويقول المختار<sup>(١)</sup> بن محمد الحسنى  
من شعراء القرن الثالث عشر الهجرى :

شأنُ المحبين أن يكوا وأن يقفوا      بين المنازل فابكوا بينها وقفوا  
ما فى البكاء بها عازٌّ ولا سرفٌ      بل البكاء على غير الهوى سرفٌ  
إن لم تكن عبراتُ العينِ واكفةً      فيها ففى أى دارٍ بعدها تكفٌ<sup>(٢)</sup>  
والعينُ ما برحتُ من فيضِ عبرتها      إنسانها يخفى طسورا وينكشف  
تُصمى القلوبَ بسَهْمَى لحظها عَرَضًا      إن القلوبَ لسَهْمَى لحظها هَدَفٌ<sup>(٣)</sup>

وهو يقول لصحبه إن عادة المحبين إذا ألموا بديار محبوباتهم أن يستوقفوا الركب ويكوا  
ققفوا وابكوا فى منازل صاحبتى ، وإن لم تسيلْ عبراتى ، ففى أى دارٍ غير دارها تسيل وإن  
عبراتى لتهمى حتى ليخفى إنسان عيني وراءها تارة ، وتارة ينكشف ، وإنها لتصيب القلوب  
بسهام لحظها دون قصد حتى لكأن القلوب دائما لها هدف . ويقول محمد<sup>(٤)</sup> بن حنبل الحسنى  
المتوفى سنة ١٣٠٢ هـ / ١٨٨٥ م :

اسكبي الدمع واهجرى النومَ عيني      صرمتُ حنبلَ الوصلِ أمُ حكيم<sup>(٥)</sup>  
تلك من جرعتِ فوادى كوسًا      من هواها تُبتي كالسليم<sup>(٦)</sup>  
لا تظنُ الظنونَ أنْ مقامى      بالينبيغ لأطلاب العلوم  
بل لغريبَةٍ تهبُّ عشيًا      يشذها فأشتفى بالشميم  
وأرى عينَ من رآها فاطفى      لهبَّ الوجد من حشائِ الكليم

وهو يطلب من عينه أن تسكب الدمع مدرارا وتهجر النوم هجرانا ، فقد قطعت أم  
حكيم ما كان بينها وبينه من وصل ، ويقول إنها جرعت كوسا من حبها جعلته بيت  
طوال الليل كالملدوغ . ويذكر أنه ينبغي أن لا يظن أحد أن مقامه فى جوارها بالينبوع من  
أجل طلب العلوم ، وكان شغوقا بها ، إنما هو من أجل استرواح الريح الغربية التى تحمل  
عطر أم حكيم فيشتفى بها أو ليرى عين من رآها فيطفىء نار الوجد المشتعلة فى حنايا  
أحشائه . وتتوقف قليلا إزاء بعض شعراء الغزل .

(١) الشعر والشعراء فى موريتانيا ص ١٠٣ .  
(٢) واكفة من ركفت تكف : تسيل .  
(٣) تصمى : نصب .  
(٤) الشعر والشعراء فى موريتانيا ص ١٠٥ .  
(٥) صرمت : قطعت .  
(٦) السليم : الملدوغ .

## الأحول<sup>(١)</sup> الحسنى

هو عبد الله الأحول الحسنى ، كان حسن الأخلاق عالما باللغة ، ولما وقعت الحرب بين قومه وبين العلويين انحاز فيها إلى قومه وسلّم معهم سيفه ، ونظم فيها أشعارا كثيرة ضد العلويين ، وما زال حاملا سلاحه حتى قتل في إحدى معاركها سنة ١٢٥٠ هـ / ١٨٣٥ م وأُشيد له الشنقيطى والدكتور محمد المختار قصائد ومقطوعات غزلية مختلفة منها قوله :

شَدُّوا المَهَارَى بِأَكْوَارٍ وَأَحْدَاجٍ وَأُدْلَجُوا تَحْتَ لَيْلِ الْبَيْلِ دَاجٍ<sup>(٢)</sup>  
فَأَصْبَحَتْ دَوْرُهُمْ قَفْرًا مَعْطَلَةً تَبْكِي دَوَاعِي هَدِيلٍ شَجْوَهَا شَاجٍ<sup>(٣)</sup>  
تَلُوحُ آثَارٌ مِنْ بَنَانَا بِمَعْهَدِهَا مِثْلَ الْبُرُودِ وَشَتَّهَا كَفُّ نَسَاجٍ  
فَمَا عَلِمْتُ وَلَمْ أَشْعُرْ بَيْنَهُمْ إِلَّا يَجُوتُنَ مِنَ الْغُرَبَانِ شِجَاجٍ<sup>(٤)</sup>  
تَبَا لِعَيْسٍ نَأَتْ عَنَا بِنَاعِمَةً غَيْدَاءَ رِيَاءَةِ الْحِجْلَيْنِ مِغْنَجٍ<sup>(٥)</sup>

والأحول يقول إن أهل صاحبه شدوا لإبل الرحيل ومعهن النساء فى الرجال والموداج ، وساروا فى ليل شديد الظلام وأصبحت دورهم خالية يكي فيها الهديل وحماماته بكاء يثير الوجد والشجن ، وآثارهم فى الديار وكأنها ثياب زينها نساج بما فيها من رسوم وخطوط . وما أعلمنى بينهم وبعدهم إلا نعيب غراب شديد السواد . ويقول هلاكاً لإبل بعدت عنا بحسناة ممتلئة الخلدالين ذات دلال يزيدا حسناً ، ويقول :

أَمَسْتُ مَعَاهِدُ سَعْدَى بِاللَّوَى دُرْسًا مِنْ صَوْبِ وَدَقِّ الْغَوَادَى بُكْرَةً وَمَسَا<sup>(٦)</sup>  
كَمْ حَاوَرْتَنِي . بِهَا حَوْرَاءُ آتَسَةٌ غَرْلَةٌ مَنَ حَاوَرْتَهُ مَنطِقًا أُتْسَا<sup>(٧)</sup>  
أَلْهُو بِسَعْدَى وَسَعْدَى لَا يُخْبِيهَا نَمُّ الْمُرَيْدِينَ تَخْبِيَا مِنَ الْجَلْسَا<sup>(٨)</sup>  
بِيضَاءُ مِنْ مَدِّ فِيهَا الْعَيْنُ فَاقْتَبَسَتْ تَحْتَ الدُّجَى مِنْ سَنَاهَا أَنْكَرَ الْقَبْسَا  
بَل لَوْرَاهَا أَهَالِي يَوْسُفٍ قَطَعَتْ مِنْهُمْ قُلُوبُ رَجَالٍ لَا أَكْفُ نِسَا

وهو يقول إن ديار سعدى صاحبه أصبحت عافية من طول ما اتسكب عليها من أمطار السحب صياحا ومساء ، ويذكر صاحبه اللطيفة الحسناة وأتسه بها وأحاديثها حين كانت

(١) انظر فى ترجمة الأحول وشعره الشنقيطى ص ٣٠٤  
والدكتور محمد المختار ص ٨٤ وفى مواضع مختلفة .  
(٢) المَهَارَى : الإبل . الأَكْوَار : الرجال . الأَحْدَاج :  
الموداج . أَدْلَجُوا : صاروا ليلاً . أَلِيل : شديد السواد .  
(٣) هَدِيل : ذكر الحمام . شَجْوَهَا : حزنها . شَاج :  
كثير الحزن .  
(٤) بَيْنَهُمْ : يُعْلِمُهُمْ . جُون : سُود . شِجَاج : يكثر

من النعيب والصياح .  
(٥) الْعَيْس : الإبل . غَيْدَاء : حسناة . رِيَاءَةُ الْحِجْلَيْنِ :  
ممتلئة الخلدالين . مِغْنَج : ذات دلال .  
(٦) دُرْسًا : عافية . وَدَق : مطر . الْغَوَادَى : السحب .  
(٧) حَوْرَاء : ذات حور فى عينيها وجمال . غَرَاء :  
بيضاء .  
(٨) يُخْبِيهَا : يخدعها . الْمُرَيْدِينَ : المعجبين .

تلهو معه غير آبهة بكلام المعجيين النمامين ، ويقول إن من يرنو إليها طويلا يشعر كأنما قَبَسَ من جمالها المضئى ما يفوق قبس النار حسنا وجمالا بل لو رآها رجال النسوة اللائى قطعن أيديهن حين أبصروا جمال يوسف لقطعوا قلوبهم اقتنا بها . ويقول :

عُرَاءُ لَا يَرْقُبُ الرَّاءُونَ وَجَنَّتْهَا      إِلَّا تَنَى النَّوْرُ مِنْهُمْ جِدَّةَ النَّظْرِ  
لَمْ تَذَرِ هَلْ هِيَ مِنْ شَذْرِ مَرْكَبَةٍ      أَمْ مِنْ صَرِيفٍ لُجَيْنٍ أَمْ سَنَا قَمَرٍ<sup>(١)</sup>  
كُلُّ تَلَابِسٍ إِلَّا أَنْ يَمِيزَهَا      مِنْ ذَا وَمِنْ ذَيْنِ وَسَمِّ الدَّلِّ وَالْخَفْرِ

فهى بيضاء لا يرمى المبصرون وجنتها النيرة إلا صرف نورها حدة النظر إليها لشدة سطوعه كسطوع ضوء الشمس . ويقول إن مبصرها لا يدرى هل هى مركبة من قطع ذهب أم من قطع فضة أم من ضوء قمر ، وكأنما كل ذلك يلتبس بها إلا ما تتميز به من الدلال والحياء اللذين يزيدانها حسنا وبهاء .

#### محمد<sup>(٢)</sup> بن الطلبة يعقوبى

عشيرة يعقوبيين أو قبيلتهم فى شنقيط ومراعى تيرس وريفها من سلالة عون بن عبد الله بن جعفر بن أبى طالب ، وامتاز يعقوبيون بالتمعمق فى العلوم الفقهية واللغوية ، وكانت لهم مدرسة تعنى بتدريس هذه العلوم ، فتوارثوا التدريس فيها كما توارثوا القضاء ، وكان أبو الشاعر وجده مدرسين ، فهو من بيت علم ، وعنى أبوه بتربيته ، وكان يُدْرَسُ للطلاب حينئذ المعلقات السبع ودواوين الشعراء الستة : امرئ القيس وزهير والنابعة وطرفة وعنترة وعلقمة ، ودويان ذى الرمة . وأضاف إلى ذلك الطلاب النابهون من أمثال محمد بن الطلبة ديوان الشماخ والأعشى وغيرهما من القدماء . وتمثل ابن الطلبة الشعر الجاهلى والإسلامى تمثلا لانكاد نجد له نظيرا بين شعراء البلاد المغربية على الأقل إن لم يكن بين شعراء العربية عامة ، وتقروءه وكأنك تقرأ لشعراء الجاهلية المفرطين فى استخدام الألفاظ الغريبة من مثل الحارث بن حلزة والشماخ وأضرابهما من الجاهليين . وهياً لذلك عند محمد بن الطلبة وغيره من شعراء موريتانيا أن يبتها كانت تشبه البيئة الجاهلية بصحاريها وبقباثلها الرُحْلُ وراء المراعى ومساقط الغيث ، وبإبلها وأنعامها الراعية وبآبارها الآجنة وفى كل بقعة فى المراعى نجد أطلالا وآثارا لمن أقاموا بها فترة ثم زالوها . وكما يكتر الشاعر الجاهلى من قطع المفاوز على ناقته كذلك يكتر الشاعر الموريتانى مستمدا من واقع حياته الذى لا يختلف عن واقع حياة الجاهليين ، وكاد محمد بن الطلبة لا يترك موضعا

(١) شذر: قطع الذهب . صريف لجين : قطع فضة . وقد أنشد فى كتابه معارضاته جميعا وكثيرا من شعره ، سنا : ضوء .  
وراجع الشعر والشعراء فى موريتانيا ص ٩٠ وما بعدها .

(٢) انظر فى ترجمة محمد بن الطلبة الشنقيطى ص ٩٤

فى تيرس ومراعيها وريفها إلا تغنى به . وتغنى طويلا بمسيرة الظعن ، وبين الظاعنات محبوبته ، كما تغنى طويلا بمجونات الصحراء من إبل وخيل وبقر وظباء ونعام وأتن وحشية مع حمارها ، فالحياة الصحراوية الجاهلية بحذافيرها يتمثلها محمد بن الطلبة وغيره من شعراء موريتانيا ، وكأنما أراد أن يثبت مدى صحراويته فى شعره فاختار قصيدتين للشماخ ولحميد بن ثور الصحليين تكظان بالغريب ويوصف الحياة الصحراوية وحيواناتها وظعننها وعارضهما معارضة رائعة . وبالمثل عارض قصيدة للأعشى ، ولن نسوق أمثلة لغزله من هذه القصائد لكثرة الغريب فيها ، إنما نسوق له أمثلة من غزلياته الأخرى منحين ما ينظمه ممتلئاً بالألفاظ الصحراوية الآبدة ، فمن ذلك قوله مخاطباً محبوبته التى يسميها أم المؤمنين :

كيف التجلّد لا تجلّد بعدما	شَطَّتْ بِأُمِّ الْمُؤْمِنِينَ نَوَاهَا <sup>(١)</sup>
عوجى قليلا ريثما أشكو الذى	قد شَفَّ نَفْسِي مِنْكُمْ وَبَرَاهَا <sup>(٢)</sup>
ما كان ضَرْكِي لو رَدَدْتِ تَحِيَّةً	فيها لنفسي - لو رددت - شِفَاهَا
واها لما أبدي لنا يومَ النوى	منها الوداعُ وقلْ مِنَّا وَاها <sup>(٣)</sup>
يا ليت شعرى والفراقُ موكلٌ	بالعاشقين متى يكونُ لقاها

وهو يقول كيف التجلّد للأسى والصبر بعدما أوغلت بها النوى وبعد الدار ، ويتمنى لو كانت وقتت له قليلا ليشكو لها شغوف نفسه وضنا جسمه بحبها ، ويقول إنه حيّاها ولم تحيه ولو حيته لشفت نفسه مما يضطرم فيها من الألم ، ويتفجع لوداعها يوم الفراق ويتحسر متمنيا لقاءها بعد هذا الفراق . ويقول :

لا القلبُ عن ذكر أمِّ المؤمنين سَلا	ولا أرى عاذلاني تترك العذلا <sup>(٤)</sup>
بل لا أرى لوم من يلحو ومن عدلا	إلا يزيدُ علىَّ همُّ والخبلا
ولا أراني أرى رسما ولا طللا	إلا وساءلتُ عنها الرسم والطللا
هى التى أنا لا أبغى بها بدلا	وتنيل الوصلَ منها تنيل الأمللا

فهو لن يسلو صاحبته مهما لامته اللاتيمات ، بل إن لوم من يلومه إنما يزيدة هما وجنونا بحبها ، ويقول إنه لا يرى رسما ولا طللا إلا سأله عنها كأنما تملأ عليه جميع البقاع ، ويؤكد أنه لا يبغى بها بدلا لها إذ نيل وصلها نيل أمله فى دنياه . ويقول فيها :

(١) التجلّد : الاحتمال فى صبر . النوى : الفراق .  
(٢) عوجى : توقى وميل . براها : تحلها .  
(٣) واها : كلمة تقال فى التفجع وفى العجب .  
(٤) العذل : اللوم ، ومنه العاذلات .

إن قلبى متيمٌ بالحسانِ من ذوات الأَحسابِ من حَسَانٍ  
 كلُّ بيضاءَ خَدَلَةِ الساقِ رُودٍ تَتَنَّى كَأَنَّهَا غُصْنُ بَانَ<sup>(١)</sup>  
 جعلتُ فوقَ نَحْرِهَا الشَّدْرَ والِدْرَ وناطتُ قلائدَ المَرْجانِ<sup>(٢)</sup>  
 غيرَ أنى ما إن وجدتُ كَأَمِّ المَبِؤْمِنِ العَرُوبِ فى النَّسوانِ<sup>(٣)</sup>  
 ولها منطقٌ لو اصغى له الرُّهبانُ أصبى مشايخِ الرُّهبانِ<sup>(٤)</sup>

وهو يقول إن قلبه مشغوف بالحسان ذوات الحسب والنسب من قبيلة حسان الشنقيطية ، فكل فتاة بيضاء منها ممتلئة الساق شابة فاتنة تمايل تمايل غصن البان على شجرته ، وفوق نحرها شذور الذهب واللؤلؤ وقلائده ، وفاتتتهن أم المؤمنين الجميلة ذات المنطق الجميل الذى لو أرهف الرهبان السمع إليه لأصباحهم ومالوا إليها إعجابا . ولابن الطلبة وراء ذلك غزليات كثيرة . وقد توفى سنة ١٢٧٢ هـ / ١٨٥٦ م .

### يقوى<sup>(٥)</sup> الفاضلى

ذكر الدكتور محمد المختار فى كتابه الشعر والشعراء فى موريتانيا طائفة من الشعراء الغزليين فى القرن الثالث عشر الهجرى وما لهم من قصائد ومقطوعات غزلية مثل المجدد المجلسى والمأمون اليعقوبى ومحمد بن السالم والمختار بن محمد الحسنى والهادى العلوى ومحمد بن بابكر ، وقال من أنفلهم وأجودهم شعرا يقوى الفاضلى الذى ذكر عنه أنه توفى سنة ١٣٠٣هـ / ١٨٨٦م وقال إنه شاعر رقيق مطبوع ، وأنشد له قصيدتين غزليتين ، وفى أولهما يتغزل فى صاحبتة سليمانى منشدا :

زعمَ الجاهلون أنَّ عهدًا  
 أو منحتُ الوداد غير سُلِّمى  
 ما تغيَّرتُ لا ولكنَّ عَدانى  
 ومهاوٍ تهابُ - إن نظرتُها -  
 قد تجشَّمتُ هولها أتخطى  
 كنُّ بينى وبينها أتساها  
 لا ومَنْ زَيْنَ السَّما وَبَنَّاها  
 عن لِقاها أجلُّ مما عَدَّاها<sup>(٦)</sup>  
 عَيْنُ مجتازها الجليدِ سُرَّها<sup>(٧)</sup>  
 لسُلِّمى حتى دخلتُ حِمَّاها

موريتانيا ص ٩٩ ومابعدها وانظر فى رفاة وتاريخها ص ٧٤ .

(٦) عدانى : شغلى .

(٧) مهاو : جمع مهوى يريد مفازات يسقط فيها

الإنسان ويهلك الجليد القوى : التحمل للمشقة

بصير . السرى : السير ليلا .

(١) خَدَلَةُ الساق : ممثلة . رود : شابة جميلة .

(٢) الشدر : قطع الذهب . الدر : اللالىء . ناطت :

علقت . المرجان : حجارة كريمة بيضاء وحمراء .

(٣) عروب : لطيفة .

(٤) أصبى : جعل مشايخ الرهبان تصابى وتكلف الهوى .

(٥) انظر فى غزل يقوى الفاضلى الشعر والشعراء فى

وهو يذكر أن من لا يعلمون مدى حبه لها ظنوا أنه نسي ما كان بينه وبينها من عهد أو أنه منح حبه لأخرى ويقسم بمن زين السماء بنجومها وكواكبها أنه ما نكث عهدا لها ولا تغير . إنما شغله عنها أخطر مما شغلها وما يقوم دون لقاءها من مفازات مهلكة ، بهاب الجليد الجرىء الصابر السرى والسير فيها ليلا ، وقد تحمل هولها متخطيا من مفازة إلى أخرى حتى دخل ديارها وجماها ، يقول :

وتَمَيَّزْتُهَا فَذَلُّ عَلَيْهَا      فِي الدُّجَى طِيبُ نَشْرِهَا وَبُرَاهَا<sup>(١)</sup>  
فَعَلَّتْني مَهَابَةٌ وَوَجُومٌ      مِنْ لِقَائِهَا وَمَا عَلَانِي عَلاهَا  
وَأَشَارَتْ بَأَنَّ فِي الْبَيْتِ نَاسًا      يَنْشُرُونَ الْحَدِيثَ عَمَّنْ أَتَاهَا  
قَلْتُ لِأَيِّهَا وَصَلْتُ قَالَتْ تَنَحُّ      قَبْلَ دَهْيَاءَ مُعْضَلِ أَلْقَاهَا<sup>(٢)</sup>  
وَصَفَا بَيْنَنَا الْحَدِيثُ وَقَالَتْ      لَا تُعْذِرْ بِمِثْلِهَا وَأَلْقَتْ عَصَاهَا<sup>(٣)</sup>  
ثُمَّ بَيْنَنَا بَقِيَّةَ اللَّيْلِ نَلْهُو      بِأَحَادِيثِ لَا يُعْمَلُ جَنَاهَا<sup>(٤)</sup>

وهو يقول إنه بحث عن سليمان رده في الليل طيب عطرها وأصوات أساورها وخلصها ، ويذكر أنهما حينما تلاقيا عليهما مهابة ووجوم وأشار إلى أن في البيت ناسا يذيعون الخبر عن أتاها وتخشاهم ، فقال لها لقد تحملت مشاق حتى وصلت إليك فقالت له : الزم ناحية لا تظهرك قبل أن ألقى داهية لا أستطيع النجاة منها ، ونازعها الحديث وصفا بينهما وقالت له لا تكرر مثلها ، وباتا بقية الليل يتعمان بأحاديث شتى . والقصيدة سلسلة مثل هذا الحوار بينه وبين سليمان . ويقول في قصيدته الثانية :

مَغَانٍ سَقَانِي الدَّهْرُ فِيهَا عَلَى الظُّمَأِ      كَمُوسِ الْمَنَى مِنْ كُلِّ أَحْوَرٍ أَهْيَفَا<sup>(٥)</sup>  
لِعَمْرِي لَنْ أَمْسَتْ عَفَاءً لَفِي الْحَشَا      لَهَا مَنْزَلٌ لَمْ يَعْفُ قَطُّ وَمَا عَفَا  
وَنَاهِدَةٌ تَجَلُّوْا أَعْرُ كَأَتْمَا      يَتَرَيَاوَقَاهَا صَبُّ الْمَهِيْمِنُ قَرْقَفَا<sup>(٦)</sup>  
عَلَى وَجَنَّتِيهَا قَدْ جَرَى مَتَحِيرَا      وَلَيْتِيهَا مَاءُ الْمَلَاخَةِ وَالصَّفَا<sup>(٧)</sup>

يقول إنها مغان أو منازل طالما سقاه الدهر فيها - وهو ظمىء - كموس المنى من كل يضاء ضامرة الخصر فاتنة ، ويقسم إنها إن كانت قد عفت وأصبحت أطلالا فإن منزل صاحبتها ودارها في حشاه لا يعفو أبدا . ويصف صاحبه بأنها شابة تفتقر عن ثغر مشرق وكأتما مترج رضاب ريقها بخمر مسكرة ، ويقول إن رونق الملاحة والصفاء يجري مترقفا على وجنتيها ولبيتها الجميلة .

(١) نشرها : عطرها . البرى : الخلائيل والأساور .  
(٢) دهباء : داهية . معضل : شديدة .  
(٣) ألقَتْ عصاهَا : انطمأت واستلمت .  
(٤) الدجى : الثمر الحلو .  
(٥) أهيف : ضامر . ذكر الصفة لضرورة الشعر .  
(٦) ناهدة : شابة . أعر : أبيض يريد ثغرا أبيض .  
(٧) لبيها : موضع القلادة من الصدر .

## شعراء التصوف

عرفت موريتانيا التصوف كما عرفته الأقاليم الإسلامية جميعا ، وكان يشيع فيه مذهبان : مذهب فلسفى يؤمن أصحابه بالاتحاد مع الله والفناء فيه وأيضا بجلوله فيهم ، ومذهب سننى يقف عند أداء الفرائض الدينية والنوافل والإخلاص العميق لله ومحبه حجة صادقة . وطبيعى أن لا يتعلق الموريتانيون بالمذهب الأول ، لأنهم لا يتفلسفون بل يعيشون معيشة أقرب إلى الفطرة ، فلم يعتنق المذهب الصوفى الفلسفى عندهم أحد ، ونفس معتنقيه فى الأقاليم الإسلامية الأخرى كانوا دائما أفرادا ولم يصبح موجة عامة فى أى بيئة عربية ، إنما الذى أصبح له ذلك المذهب الصوفى السننى ، وأخذت تظهر فيه طرق منذ القرن السادس الهجرى ومن أهمها الطريقة القادرية لعبد القادر الجيلانى المتوفى سنة ٥٦١ هـ/١١٦٦ م وشاعت فى المغرب ، ونجد شعراء موريتانيا يذكرونها ويشيدون بشيخها أحيانا . وأهم منها الطريقة الشاذلية المنسوبة إلى أبى الحسن الشاذلى المتوفى سنة ٦٥٦ هـ/١٢٥٨ م وقد انتشر شيوخها فى البلاد المغربية ، وكانت أكثر شيوعا فى موريتانيا من الطريقة القادرية ، وأوسع منهما جميعا الطريقة التيجانية المنسوبة إلى أحمد التيجانى المتوفى بفاس سنة ١٢٣٠ هـ/١٨١٥ م إذ يبدو أنها انتشرت فى موريتانيا انتشارا واسعا لكثرة من نجدهم من الشعراء يشيدون بها وبمؤسسها ويدافعون عنها دفاعا حاراً ، من ذلك قول محمد بن عبد الله العلوى منوها بطريقته وولايته<sup>(١)</sup> :

طالغ جواهره واصحَب رسائله وما يثُّ من الأنوار والحِكْمِ  
تجدُّ ولايته لاحت معالمها كما تُرى فى الدُّجَى نارا على علم

وهو يشيد برسائله له فى النزعة الصوفية ولعله يريد بجواهره وزده الذى يُقرأ فى الصباح ، وينوه بولايته التى شاعت له فى الآفاق كما تشيع أضواء نار على قمة جبل عال . ويقول عبدالله بن أحمد دام ، وهو من أتباع طريقته مثل سالفه المعاصر له مدافعا عنه ضد خصوم طريقته<sup>(٢)</sup> :

مَنْ كان فى مذهب التيجانِ مُمْتَرِيًا      فإِنى لكمال الشيخِ معتقدُ  
مَنْ ينظرِ الكُتُبَ التى أفادَ بها      ينظرُ كلامَ محقِّ كله رشِدُ  
أما الذين تعاطوا وزده فلقد      أعيأ على العُدِّ حصرا منهم العُدُّ

(٢) الشنقيطى ص ٢٨٩ .

(١) الشنقيطى ص ٢٣ .

فهو من المعتقدين في إمامة أحمد التيجاني الصوفية وقطبته ويقول إن من ينظر في رسائله ومؤلفاته يعرف روعة كلامه وصدقه وتصوفه الحق ، ويذكر أن من اعتنقوا طريقته ويقروون ورده يفوتهم العذ والإحصاء . ويقول محمد بن عبد الجليل العلوي<sup>(١)</sup> :

إنا حماة طريق أحمد شيخنا ونجيب عنه المنكرين ومن جفا  
وتعد للعداى عليه صوارما وأسود غاب في الكريهة زحفا<sup>(٢)</sup>

وهو يذكر عن نفسه وشيخه التيجاني أنهم حماة طريقته يذودون عنها بالحجج الدامغة وبالسيوف القاطعة تحملها أسود غاب ضارية . وتقف قليلا بإزاء شيخين موريتانيين من شيوخ التصوف .

### المختار<sup>(٣)</sup> الكنتي

من ذرية عقبة بن نافع والى المغرب ومؤسس مدينة القيروان ، يقول الشنقيطي عنه : « كان من أفراد عصره علما وصلاحا ، ولم نر أحدا يطعن في ولايته سوى المختار بن بون كان يشدد النكير عليه لما بلغه من أن الشيخ الكنتي يسلبه . ورجع عن ذلك وصارت بينهما مكاتبات وملاطفات ، ويقول الشنقيطي : « على أنه لا يوجد ولى إلا وتنكر عليه أشياء من العلماء » ومن نظر في كتبه سواء كانت في الحقائق الصوفية أو غيرها يتبين له فضله ، وفيه يقول محمد بن الأمين :

وأخرجه ذو العرش للناس نائبا عن المصطفى والأمر فاش وذائع  
ويُرضع من ندى المعارف من أتى مريدا ولم تُرضع كذاك المراضع

وهو يقول إن الله أخرجه نائبا عن الرسول في هداية الناس ، وهى مبالغة واضحة . ويذكر أنه يغذى مريديه الكثيرين الذين يأخذون المهود عليه من المعارف الربانية غذاء لا يمثاله أى غذاء لشيخ من شيوخ الطرق الصوفية . وقد توفي سنة ١٢٢٦ هـ / ١٨١٢ م . وله يدعو إلى العمل الصالح استعدادا للآخرة :

أيقظ جفونك إن القلب وسنان  
وجد شوقا إلى أحرار مبتدرا  
واعمل لدار بها اللذات قاطبة  
ظل وماء وأزهار مفتحة  
قيعان مسك بها الأنهار جارية  
وصمم العزم إن العزم كسلان<sup>(٤)</sup>  
إن اللبيب إلى أحراره حنان<sup>(٥)</sup>  
روح وراح وراحات وزحان  
عن الكمام أشكال وألوان  
خمر وماء وماذى وألبان<sup>(٦)</sup>

(٤) رستان : نائم .

(٥) حنان : مشتاق .

(٦) ماذى : عمل مصفى .

(١) الشعر والشعراء في موريتانيا ص ٢٧٨ .

(٢) صوارم : سيوف قاطمة .

(٣) انظر ترجمة المختار الكنتي وشعره في الشنقيطي

ص ٣٦١ والشعر والشعراء في موريتانيا ص ٣٩٠ .

وهو يدعو النائمين عن العمل للآخرة أن يفتحوا عيونهم ويعزموا عزيمة صادقا على العمل لها والجد فيه فالعاقلة من بادر إلى ذلك اشتياقا للآخرة ، وعمل لدار الخلد المشتملة على جميع اللذات من راحة وخمر ومسرات وريحان عطر ، وظل وماء جار وأزهار عبقة أشكال وألوان وقيعان مسك تجرى من تحتها الأنهار وخمر غير مسكرة وعسل مصفى وألبان ، ويسترسل في وصف من بالجنة من المحور العين منشدا :

يَبِضُّ نَوَاعِمُ أَبْكَارٍ مَنَعَمَةً      تحمار فيهن ألبابٌ وأذهانُ  
يَزْفُلْنَ مِنْ سُنْدُسِ الْفِرْدَوْسِ فِي حُلَلٍ      من فوقها حُلَلٌ من تحتها بانٌ<sup>(١)</sup>  
نَشْأَنَ وَسَطِّ مَقَاصِيرِ مَزْحَرَفَةٍ      لم يَطْعُمِهَا بِهَا إِنْسٌ وَلَا جَانٌ<sup>(٢)</sup>  
رِيْقٌ لَذِيذٌ وَأَنْفَاسٌ مَعْطَرَةٌ      ومنطقٌ ساحرٌ الألفاظُ فَنَانٌ  
مَهْوَرَهْنَ صَلَاحٍ دَائِمٌ وَتُقَى      زهْدٌ وصبرٌ وإخلاصٌ وإيمانٌ

وهو يستمد في وصفه للمحور العين من سورة الرحمن في القرآن الكريم ، فيقول إنهن يبض ناعمات أبكار مترفات تحمار في جمالهن العقول والألباب يتبخرن في حلال الفردوس السندية ، وقد نشأن في غرف مزخرفة ، لم يلامسهن إنس ولا جان ، ريقهن لذيد ونفحهن شذى وعطر ، ويتحدثن حديثا ساحرا فتانا ، ومهورهن صلاح وتقى وزهد وتكشف وإخلاص لله ودينه الحنيف وإيمان صادق .

### الشيخ سيدياً<sup>(٣)</sup>

هو الشيخ سيدياً (بتشديد الياء ومدّها) بن المختار بن الهيب التندغى الأبييرى ، يقول الشنقيطى : « هو العَلْمُ الذى رُفِعَ على أهل قطره ، واستظلَّ به أهل دهره .. اشتغل فى شبابه بالعلوم وبرع فيها بملازمته لأستاذه حُرْم بن عبد الجليل العلوى . ولما تزلع من علمه شدُّ الرحال إلى الشيخ المختار الكنتى بآزواد .. ولازمه ستة أشهر ، ثم مات الشيخ المختار فبقى عند ابنه محمد خليفته فى الطريق الصوفى ، ولازمه عشرين سنة حتى برع فى معرفة الطريق ، ورجع إلى قبيلته أولاد أُبَيْرٍ فتلقوه بما هو أهله واعترفوا بفضله . ولم تزل فضائله تنمو حتى أذعنّت له قبائل الزوايا وحسان وصار مثل الملك بينهم فلا يرد أمره ، وكان أهلا لذلك كرما وحلما وعلما ، ولم تزل الدنيا تتثال عليه . وجعلت العرب منزله فى أرض شنقيط حَرَمًا آمنا ،

(١) يرفلن : يتبخرن . بان : شجر يشبه به الحسان فى جمال القوام .  
(٢) يطمئنها : يطمئنها .  
(٣) انظر فى الشيخ سيدياً الشنقيطى ص ٢٤٠ والشعر والشعراء فى موريتانيا ص ٣٩١ وما بعدها وفى مواضع متفرقة .

ولم يكن يمضى عليه يوم إلا وعنده آلاف من الناس يطعمهم ويكسوهم ويقضى جميع حوائجهم ومآربهم .. وكان تلاميذه ومريدوه يحاولون أن يقلل من هذا الكرم الفياض فلا يستمع إليهم إلى أن توفي سنة ١٢٨٤ هـ/١٨٦٨ م . وكان شاعرا بارعا ، وله من قصيدة :

رفعتُ إلى مولائى جُلُّ شِكَايَتِي وَأَمَلْتُ نَشْلِي عِنْدَهُ مِنْ بَلَّتِي  
بَلِيْتُ وَهَلْ يُبَلِّئِي مَرِيْدًا بِمِثْلِ مَا بَلِيْتُ بِهِ مِنْ خُبْتِ نَفْسٍ غَوِيَّةٍ  
حِجَابٌ عَمَّاها عَنْ شُهُودِ صِفَاتِهَا بِوَحْجَتِ عَنْ مَشْهَدِ الْأَحْيَاءِ  
لِذَلِكَ أَفْنَتُ جِدَّهَا وَاجْتِهَادَهَا وَمَرْغَبَهَا فِي الْفَاتِيَاتِ الدُّنْيَا  
صَحْتُ مِنْ سَحَابِ الْوَارِدَاتِ سَمَاوَهَا بِعَصْفِ رِيَاكِ الْهَاجِسَاتِ الرَّوِيَّةِ  
مَدَدْتُ إِلَيْكَ الْكُفَّ يَا خَيْرَ وَاهِبٍ فَلَا تَحْرِمِ الْخَيْرَ الْمُنَافِضَ يُدْبِيْتُ (١)

وهو يقول إنه رفع شكواه إلى ربه ضارعا إليه أن ينقذه من بليته ، وهل يُبَلِّئِي مريد محب ربه بمثل ما بَلِيْتُ به من نفس خبيثة ممعنة فى الغواية إمعانا حجبتها عن مشهد الصوفى لأحدثه واتحاده بربه ، ويقول إنها جعلت كل همها واجتهادها فى المتاع الفانى ، مما جعل الواردات الربانية تنحسر عن سائتها بهبوب الريح الخواطر الرديئة . ويضرع إلى ربه ماداً كفيها أن لا يحرم يده من خيرها الذى يفيضه على عباده ، ويريد الخير الصوفى من النسك له والاتحاد به والفاء فيه . وله دعاء طويل يستهله بقوله :

يَا وَاسِعَ الرَّحْمَاتِ يَا فَتَّاحُ يَا مَنْ دُعَاهُ لِبَابِهِ مِفْتَاحُ  
يَا بَرُّ يَا رِزْقُ رِزْقِكَ شَامِلٌ تُغْذِي بِهِ الْأَرْوَاحَ وَالْأَشْبَاحُ  
يَا فَارِجَ الْهَمِّ الْمُرِبُ وَكَاشِفَا كَرْبِ الْعَبِيدِ إِذَا دَعَوْكَ وَابْحَاوَا (٢)  
فَرِّجْ كَرْوَبَ الْمُسْلِمِينَ جَمِيعِهِمْ وَأَعِثْ بِمَا لَهُمْ بِهِ إِصْلَاحُ  
أَنْتَ الْمَغِيثُ وَأَنْتَ ذُو الرَّحْمَى الَّتِي بَنَزَوَهَا شِدْدَةُ السُّورَى تَنْزَاحُ (٣)  
تِلْكَ الْأَرْضَى وَهَذَاهَا وَبِنَجَادَهَا جُرِّزُ بِهَا تَخَافُ الْأَرْوَاحُ (٤)

وهو يدعو ربه قائلا : اشمئنى برحمتك الواسعة وافتح لى باب الرزق المغلق ، يا من يستجيب للداعين ، يا محسن ، يا رزاق رزقا شاملا للناس وغير الناس ، يا فارح الهم المقيم وكاشفا غم العبيد فرج كروب المسلمين وأغثهم بما يصلحهم ، فأنت المغيث الرحيم الذى برحمته تزول كل الشدائد . ويصور الشدائد فى شنقيط ومراعى تيرس وريفها ، فالأراضى منخفضةا ومرتفعاتها أجدبت ، ولم يعد بها إلا رياح تهب يميننا وشمالا ويقول إن البهائم لا تجد ما ترعاه

(٤) جزر : مجلبة . تتخافق : تضطرب . الأرواح :

الرياح .

(١) يدبى : تصغير يد .

(٢) المرِب : المقيم .

(٣) شد جمع شدة .

وأصبحت عِجافاً مهزولات ، ويضرع إلى ربه طويلاً أن يرسل على البلاد سحبا تندفق بالأمطار ،  
 فينبت الزرع ويمتلئ الضرع ، وتنشأ الرياض وتجدد الأشجار ويروى الظمان ويشبع الجائع  
 ويعم رخاء لا يشوبه بؤس ولا شقاء .

### ٣

#### شعراء المدائح النبوية

بدأت هذه المدائح في حياة الرسول ﷺ على لسان حسان بن ثابت وعبد الله بن رواحة  
 وكعب بن زهير وأضرابهم ، وأخذت تتكاثر في العصر العباسي على لسان أهل السنة مصورين  
 في الرسول المثل الأعلى للمسلم في تقواه ونسكه ودعوته لرسالاته وجهاده العظيم في نشرها ،  
 وبالمثل على السنة الشيعية مرددين أن نوره الحمدي سرى في أئمتهم . وأخذ المتصوفة - منذ  
 الحلاج - يشيعون فكرة الحقيقة الحمديّة وأن الرسول ﷺ مبدأ الوجود الروحي للحياة البشرية ،  
 بل مبدأ النور والوجود في الكون . ويشيد المادحون له دائماً بمعجزاته الموثقة في كتب السيرة  
 النبوية وبمعجزته الكبرى الخالدة : القرآن الكريم . وعادة ينهون مدائحهم بالتماس الشفاعة  
 منه يوم القيامة وأن يغفر الله لهم ذنوبهم . ومنذ نشط الشعر في موريتانيا نرى شعراءها - مثل  
 شعراء الأفطار الإسلامية - يتغنون بمدح الرسول ﷺ مصورين سيرته ومعجزاته ومناقبه ومعجزاته  
 الباهرة وجهاده الرائع في نشر رسالاته وجهاده أصحابه ، مع التوسل إليه في غفران ذنوبهم  
 والشفاعة يوم العرّض . وتكثر هذه المدائح في الشعر الموريتاني ، ونختار بعض أمثلة مع الترجمة  
 لبعض من برعوا في نظمها ، فمن ذلك قول محمد بن عبد الرحمن الحسني - من شعراء القرن  
 الثاني عشر الهجري - في مدح الرسول ﷺ (١) :

فإن لم تكن لي خيمةٌ حول رَمْسِهِ	فهذا هواهُ في فُوَادِي خَيْمًا <sup>(٢)</sup>
ويا لَيْتَ خَدْيِي كَانَ مَوْطِيءَ نَعْلِهِ	وصدري ضَرْيِحًا جَامعًا مِنْهُ أَعْظَمًا
وما مثله البحرُ الخَضَمُ تَكَرُّمًا	ولا كَتْنَايَاهُ البُرُوقُ تَبْسُمًا <sup>(٣)</sup>
ولو قِسْتَهُ ضَوْءًا وَجودًا وَجِرَاءً	بشمسٍ وَضُرْعَامٍ وَوَيْلِي مَتَى هَمِي <sup>(٤)</sup>
لكنتَ كمن قد شبّه الشمسَ بالسُّهًا	وبالطُّلِّ وَكَأفًا وبالجِرِّ ضَيْمًا <sup>(٥)</sup>

وهو يقول إن لم تكن لي خيمة أعيش فيها حول قبره فإن هواه خيم في فؤادي واستقر  
 به ، ويتمنى لو عاش في زمنه وكان خده موطيء نعله وصدرة قبراً لأعظمه العطرة ، ويقول

(١) الشعر والشعراء في موريتانيا ص ١٤٣ .  
 (٢) رمسه : قبره .  
 (٣) الخضم : الواسع الزاخر .  
 (٤) ضرغام : أسد . ويل : مطر غزير . همي : سال .  
 (٥) السها : كوكب صغير . طل : مطر قليل .  
 وكاف : مطر منهزم . ضيغم : أسد .

إن البحر الواسع الزاخر لا يماثله كرما ولا البروق المضئية تماثل ثنياه تبسما وإشراقا . ولو قاسه أحد بالشمس لكان كمن يقيس الشمس بنجم السُّها الضئيل ، ولو قاسه بالوبل والمطر الغزير لكان كمن يقيس الطلُّ بالغيث المنهمر ، ولو قاسه أيضا بأسد لكان كمن يقيس الهر بأسد شديد الضراوة . ولغالى بن المختارقال البوصادى - من شعراء النصف الأول من القرن الثالث عشر الهجرى - مدحتان رائعتان فى الرسول يقول فى إحداهما<sup>(١)</sup> :

محمدٌ سيِّدُ الكَوْنينِ سيِّدُ مَنْ يَمْشى على الأرضِ من حافٍ ومُنْتَبِلٍ<sup>(٢)</sup>  
 محمدٌ سيِّدُ الأقطارِ سيِّدُ مَنْ حاز العُلا من ذوى الأمصارِ والنُقُلِ<sup>(٣)</sup>  
 مَنْ للعصاةِ شفيحٌ للمُضامِ حِمىُّ المُستئينِ ربيعٌ كالحيا الهَطْلِ<sup>(٤)</sup>  
 للمهتدينِ سَناءٌ للمُرملينِ غِنىُّ عَلاؤِه فوقَ كلِّ المرسلينِ عَلى<sup>(٥)</sup>  
 بَدْرٍ حُلاه به الآفاقُ حاليَّةٌ للمشتكينِ مُنىُّ للمرسلينِ ولى<sup>(٦)</sup>

وغالى يقول محمد سيد الدنيا والآخرة وسيد كل من يمشى على الأرض حافيا ومتعلا وسيد الأقطار وسيد كل من حاز شرفا من البدو والحضر ، شفيح العصاة حمى لهم ، وللمجدين ربيع كالغيث المنهمر ، وهو نور مشرق للمهتدين ، وغنى للفقراء المُعوزين ، ومنى للمشتكين السائلين وسيد الأنبياء والمرسلين ، إنه بدرٌ ازدادت بأضوائه الآفاق ، وقد علا علاؤه وشرفه فوق كل المرسلين . وللأحول الحسنى مدائح متعددة للرسول ﷺ ، ومن قوله فى إحداهما<sup>(٧)</sup> :

قدوةُ الأنبياءِ قطبُ رَحَى الكَوْنِ  
 وسراجُ السورَى المنيرُ المُحَيَّا  
 وكتابٌ عليه أنزلهُ اللد  
 بشرتُ آيَهُ وأنذرتُ النَّاسَ  
 وفنونٌ من البلاغةِ تُعفى  
 نِ وإنسانٌ مقلَّةُ الإيجادِ  
 ويشيرُ السورَى النذيرُ العبادِ  
 هُ شفاءٌ ورحمةٌ للعبادِ  
 سَ بوعِدِ الثوابِ والإيعادِ  
 بلغاءُ الجوابِ فى كلِّ نادِ

وهو يقول إن الرسول القدوة المثل للأنبياء ومحور حركة الكون وإنسان عَيْن الإيجاد والخلق . وواضح أن هذا البيت الأول يستمد من فكرة الحقيقة المحمدية وأنه مبدأ الوجود وروحه ، ويقول إنه سراج البشرية ذو الوجه المنير ، وقد أرسله الله بشيرا ونذيرا للناس ، وأنزل عليه القرآن شفاء ورحمة لهم يشركهم بثوابه وينذرهم بإيعاده أو عقابه ، وقد حوى من فنون البلاغة ما أعجز البلغاء فى كل ناد وجماعة عن معارضته والإتيان بمثله . ويقول محمدى العلوى مولدية نبوية بديعة ، منها قوله<sup>(٨)</sup> :

(١) الشعر والشعراء فى موريتانيا ص ١٥٠ وما بعدها .  
 (٢) الكونين : الدنيا والآخرة .  
 (٣) ذوى النقل : البدو الرحل .  
 (٤) المستئين : المجدين . الحيا : الغيث .  
 (٥) سنا : ضوء . للمرملين : للفقراء .  
 (٦) حالية : مزدانة . ول : سيد .  
 (٧) الشعر والشعراء فى موريتانيا ص ١٦٥ .  
 (٨) الشعر والشعراء فى موريتانيا ص ١٧١ .

أهلاً بشهر المولد شهر العلا والسودد شهر النبي أحمد  
 أهلاً بشهر الهادي شهر ربيع الأول  
 أهلاً بليل الأثني عشر منهج الرشاد وقائد وحاد  
 إلى الطريق الأمثل  
 أهلاً بليل الأثني عشر فيه ويوم الأعر وطيب ذلك السحر  
 ونور أفتحه الجلي

والمدحة بديعة ، وهو يرحب بشهر المولد للنبي : شهر العلا والفخر والمجد ، شهر الحبيب المصطفى شهر مولده : ربيع الأول ، شهر الهادي إلى الرشاد والقائد والهادي إلى الطريق المستقيم . ويرحب بليلة ميلاد الرسول ليلة اليوم الأغر الشريف الثاني عشر ، وبما نشر سحرها من طيب عطر ونور منتشر في أفتحه بل في كل الآفاق . ويقول محمد بن الشيخ سيد الأبيري خليفة أبيه في الطريقة الصوفية والمترجم له بين شعراء الفخر مدحة مولدية بارعة ، منها قوله (١) :

أهلاً بميلاد مولود به كملت بشرى البشائر للهادي وللقروي  
 أكرم بها ليلة غراء ضاحية فيها يتيمة سبط اللؤلؤ الأوي (٢)  
 أكرم بها ليلة غراء مظهره سر الوجود الذي فيه الوجود طوي  
 لولاه ما أنزل الذكر الحكيم ولا الدين القويم ولا ما في الصالح روي  
 ولا أقيمت من الإسلام قاعدة ولا بدا فضل سنئ على حشوي  
 ولا أبان بياني معانيه ولا نحا النحو نحوي ولا لغوي  
 لولاه لم يغلب الروم الغلاب ولا ملوك ساسان تيجي ولا عدوي

وهو يهال لميلاد الرسول الذي به تمت بشرى البشائر لكل بدوي وحضري ، ويقول ما أكرمها من ليلة شريفة مضيئة بيتمة عقد اللؤلؤ الفريد المنتهي إلى لؤي بن غالب جد الرسول ، وما أشرفها من ليلة أظهرت سر الوجود ومبدأه الذي استمد منه الكون وجوده ، إنه العلة الأولى والسر الأول في خلق الوجود ونشوء الكون ، وللرسول بذلك وجودان : وجود معنوي هو لب الوجود الكوني ووجود حسي مادي حين ولد ثم بعث للناس هادياً وسراجاً منيراً . ويقول : لولاه ما أنزل القرآن الكريم ولا الدين الخفيف أو شريعته القويمة ولا رويت أحاديثه في كتب الصحاح الستة : صحيح البخاري ومسلم وأبي داود والترمذي والنسائي وابن ماجه ، ولولاه ما أقيمت قاعدة للإسلام ولا عرف الناس فضل السنئ على

(١) الشعر والشعراء في موريتانيا ص ١٨٩ . غالب جده صلى الله عليه وسلم .

(٢) ضاحية : مضيئة . الأوي : نسبة إلى لؤي بن

الحشوى من أهل التجسيم والعقيدة الزائفة . ولولا بلاغة كتابه التى اهتمدى بها البلغاء ما كان بليغ ، ولولا العلوم الكثيرة التى نشأت حوله ما كان نحوى ولا لغوى ، ولولا رسالته العظمى ما غلب الروم الأقوياء وملوك الفرس الساسانيين أبو بكر الصديق التيمى وعمر بن الخطاب العدوى . ويقول الشيخ محمد الشمشوى المتوفى سنة ١٢٩٢ هـ/ ١٨٧٦ م صادرا عن فكرة الحقيقة المحمدية<sup>(١)</sup> :

ألا قد أقرَّ الكونُ أنَّ محمداً لكلِّ فروع الفضلِ أصلٌ مقدَّمٌ  
فمنه استفاد الحسنُ كلُّ يتيمةٍ من الدرِّ يُكسِّها غزالٌ منعمٌ  
ومنهُ استفاد الضوءُ وجهُ غزاةٍ جَنَى الضوءِ منها زبرقانٌ ومرزَمٌ<sup>(٢)</sup>  
ومنهُ استفاد الأقبوانُ نضارةً وحُسْنَ جمالِ الثغْرِ إذ يتبسَّمُ

وهو يقول إن الكون أقرُّ بأن الرسول ﷺ أصل كل ما فى الكون من فروع الفضل والجمال . فمنه استفادات الحسن كلُّ درة يتيمة فى عقد على لبة سيدة جميلة منعمة ، ومنه استفادات الشمس ضوءها ، ومنه أخذ البدر ضوءه وكذلك نجوم المطر . ومن الرسول استفاد الأقبوان نضارته واستفاد كل ثغر لسيدة من جماله حين يتبسَّم . ونكفى بما قدمنا من أمثلة المديح النبوى الموريتانى ، ونقف قليلا عند نفر من مجيديه .

### مولود<sup>(٣)</sup> بن أحمد الجواد اليعقوبى

يقول الشنقيطى فيه « هو العلامة التحرير ، واللغوى الشهير ، أحد أعلام تلك البلاد ، وإليه المرجع وعلى أقواله الاعتماد .. من أكابر تلاميذ العلامة المختار بن بون » المترجم له بين شعراء الفخر ، ويقول الشنقيطى أيضا : « كان مدأحا لرسول الله ﷺ ، ومن ذلك قصيدته المعروفة بالمرجانية ، وفيها يقول :

أزكى صلاةٍ وتسليمٍ على قمرٍ  
ياربُّ صلِّ عليه دائما أبداً  
دينٌ حنيفٌ ممَّا الماحى به وعفا  
أنت الذى أزلفَ الله الجنانَ لمن  
لو كان ذا الكونِ إنساناً لكنت له  
أنت السراجُ المنيرُ اللذُّ أنارَ به  
يدر به قد أنارَ الله أكوانه  
ما حلَّ أعراضُ هذا الكونِ أعيانه<sup>(٤)</sup>  
آثارَ من كان فى حُسْرِ وأديانه  
والى وأبرز للعايه نيرانه<sup>(٥)</sup>  
طرفاً ولو كان طرفاً كنت إنسانه<sup>(٦)</sup>  
نورُ السمواتِ والأرضين أكوانه

- (١) الشعر والشعراء فى موريتانيا ص ١٩٦ .  
(٢) الغزاة : الشمس . الزبرقان : البدر . المرزم : نجم من نجوم المطر .  
(٣) انظر فى ترجمة مولود وأشعاره الشنقيطى ص ١٩٠ وما بعدها .  
(٤) لأعيان : المحسوسات . أعراض جمع عرض : ما قام بغيره من الصفات كالطول واليباض .  
(٥) أزلف : قُرب وقدم .  
(٦) الطرف : العين . إنسانها : سوادها المبصر .

وهو يصلى ويسلم على الرسول بدر الوجود الذى أثار الله به أرجاء كونه ، ويدعو الله أن يصلى عليه ما دام الكون قائما وما دامت الأعراض تتعلق بموجوداته . وبنوه بالإسلام وأنه دين حنيف محاب الماحى ( من أسماء الرسول ) آثار الخسران والديانات الباطلة ، وقد قرب الله لمن والاه الجنان وأذاق أعدائه العاصين نيرانه ، ولو كان الكون إنسانا لكان عينه المبصرة ، أو لو كان عينا لكان إنسانها الذى ترى به الدنيا . ويلخص فى البيت الأخير فكرة الحقيقة المحمدية وأنه مبدأ الوجود ونوره وكل نور فى السموات والأرض مستمد من سراجة ، فهو منبع كل نور . ويقول :

ما سُدُّ بابُ كريمٍ دون قارعِهِ  
وارغبُ إلى ربِّكَ الأعلى ليجعلنا  
نهجَ الذى أنزلَ اللهُ الكتابَ هُدًى  
منه استفادَ النَّبِيُّونَ النَّبُوَّةَ إذ  
ألا طَربِيتُ ألا إني طَربِيتُ إلى  
مَنَ للنبيينَ مَنَ للرُّسُلِ أينَ لهم  
فأقرعُ تجذُّ بابَ مُولى الأنعمِ أنفِرجا  
مُنَّ على النهجِ نهجِ المصطفى دَرَجًا<sup>(١)</sup>  
لنا عليه ولم يجعل له عوجًا<sup>(٢)</sup>  
مما له ما لهم منها قد اختلجنا<sup>(٣)</sup>  
مَنَ جُبهَ مع لحمى والدَّمِ امتزجا  
مِنَ قابِ قوسينِ معراجٍ كما عرجا<sup>(٤)</sup>

وهو يقول اقرعُ باب الربِّ الكريم المنعم تجده قد افتتح ، وادعه أن يجعلنا ممن سار على نهج المصطفى وكتابه الذى أنزله الله عليه ولم يجعل له عوجا ولا التواء ، ويقول متمثلا فكرة الحقيقة المحمدية إنه مبدأ الأنبياء ، منه استفادوا نبوتهم التى خالجتهم فى نفوسهم . ويذكر أن حب الرسول امتزج بلحمه ودمه ، ويقول إنه ليس للأنبياء والرسل معراجة الذى خصه الله به . ويشير إلى ما جاء فى سورة النجم : ﴿فكان قاب قوسين أو أدنى﴾ .

محمد<sup>(٥)</sup> بن محمد العلوى

يقول الشنقيطى عنه : « برع فى عتفوانه فى العلوم وصرف همه إلى نظم الشعر ، وبلغ صيته فى قطره مبلغا لم يبلغه أحد من عاصره » . ولما بلغ نحو الثلاثين من عمره عزم على الحج ، ومر بمراكش ومدح سلطانها عبد الرحمن العلوى ( ١٨٣٤ - ١٨٥٩ م ) واحتفى به ، ثم توجه إلى الحرمين الشريفين فبدأ بالزيارة ثم قضى حجه ، وفى طريقه من مكة إلى جدة توفى ، يقول الشنقيطى : كان حيا بعد سنة ١٢٥٠ هـ / ١٨٣٥ م ويقول الدكتور محمد المختار

(٥) انظر فى ترجمة محمد بن محمد العلوى الشنقيطى ص ٤٧ والشعر والشعراء فى موريتانيا ص ٥١ وفى مواضع متعددة .

(١) درج : مشى وسار .  
(٢) عوجا : التواء وانحرافا واختلافا .  
(٣) اختلج فى النفس : اضطرت به ، ومنه الخوالج .  
(٤) قاب : قدر . عرج : صعد .

إنه توفي سنة ١٢٧٢ هـ/ ١٨٥٦ م ويذكر الشنقيطي أن ديوانه مجلد ضخم ، وكان مدأحا بارعا للرسول ﷺ ، وفي إحدى مدائحه يقول :

وَجَّهْتُ وَجْهِي إِلَى خَيْرِ الْوَرَى وَأَرَى  
وَجَّهْتُ وَجْهِي إِلَى مُغْنَى الْفَقِيرِ أَلَا  
وَجَّهْتُ وَجْهِي لِذِي الْخَلْقِ الْعَظِيمِ وَذِي الْ-  
وَجَّهْتُ وَجْهِي لِمَحْمُودِ الْمَقَامِ وَمَقْد  
مَنْ آيَهُ وَكَفَى الْقُرْآنُ مَعْجَزَةً  
يَكْفِيكَ أَنْ إِلَهَ الْعَرْشِ صُورُهُ  
لنفسى الفوزَ بالمطلوب والظفرا  
إتى المعروفه من أفقر الفقرا  
مجد الصميم عديم الشكل والنظرا  
صود الأنام إذا الخطبُ الجليلُ عرا  
ما كان من خارق في بدئه ظهرا  
كما يشاء ومنه صورُ الصُورا

ويبدو أنه نظم القصيدة حين عزم على الحج والزيارة أو لعله كتبها في طريقه إلى الزيارة ، وهو يقول : وجهت وجهي إلى خير البشرية ، وفي ذلك فوزي وظفري بكل ما أطلب إذ وجهت وجهي إلى مغنى الفقير روحيا ، وإني لمن أفقر الفقراء إلى معروفه . إنه صاحب الخلق الرفيع والمجد المؤتل عديم النظر ، صاحب المقام المحمود والمقصود فى نوازل الخطوب ، ومن معجزاته الباهرة القرآن ، المعجزة الخارقة . وصور الشاعر فى البيت الأخير صورة وجوده المادى الحقيقى التى صوره الله فيها صورة رقيقة ، وصورة وجوده المعنوى الذى صور الله منه صور الموجودات ، وهو وجود يسبق خلق الكون وموجوداته . ويقول فى مدحة مولدية :

إنسانُ عَيْنِ الْكُونِ عَرَّةٌ وَجْهِي  
بَابُ الْإِلَهِ وَمُصْطَفَاهُ لِسْرِهِ  
مَنْ خَصَّهُ بِحُلَى الْكَمَالِ إِلَهُ  
يَا مَوْلِدَ الْهَادَى لَشَهْرِكَ نَفْحَةٌ  
أَكْرَمُ بِمَوْلِدِ ذِي الْخِتَامِ بِيَوْمِهِ  
حَاوَى التَّفَرُّدَ بِالْمَقَامِ الْأَرْفَعِ  
وَسَرَّاجُ حَجَّتِهِ الَّذِي لَمْ يُقْشَعِ<sup>(١)</sup>  
وَالْكَوْنُ وَقَعُ أَمْرِهِ لَمْ يَوْعِ  
أَرْجَ الزَّمَانِ بِنَشْرِهَا الْمُتَضَوِّعِ<sup>(٢)</sup>  
وَبِشَهْرِهِ وَبِعَامِهِ وَالْمَوْضِعِ

وهو يقول إن محمدا ﷺ إنسان عين الكون وغرة جبينه المشرقة صاحب المقام الأرفع الفريد عند ربه ، باب رضاه وغفرانه ومصطفاه لسره ورسالته وسراج شريعته الذى لم تنحسر أضواؤه أبداً ، وقد خصه بالكمال الأسمى قبل حدوث الكون وخلقته . والشاعر بذلك يشير إلى حقيقته المحمدية الأزلية التى خلقت قبل خلق الكون ووجوده . ويقول إن لشهر مولده نفحة روحية ، تعطر الزمان بشذاها الفائح ، فما أكرم مولد خاتم الرسل ، وما أعظم شهره وعامه وموضع مولده .

(١) يقشع هنا : تنحسر أضواؤه .

(٢) أرج الزمان : تعطر . نشرها : شذاها الطيب .

يقول الشنقيطي في ترجمته : « كان محمد هذا من العلماء الأعلام ، واشتهر في اللغة . وكان نحويا وله اليد الطولى في البيان . وكان حريصا على طلب العلم ، يقال إنه مكث سبع سنوات منقطعا لطلب اللغة » وأنشد الشنقيطي له قصيدة في مدح الشيخ سيديا حضاً فيها على طلب العلم ومدارسته حضاً شديدا ، وله قصيدة يزرى فيها بأهل الجهل ومقصورة مدح بها الشيخ سيديا عارض بها مقصورة أبي صفوان الأسدي وما تصور من حيوانات الصحراء وطيرها وما تحمل من ألفاظ بدوية أبدية مما يدل على ثقافته الأدبية واللغوية الواسعة ، وأنشد له الدكتور محمد المختار نبوية طويلة في نحو مائة وثماتين بيتا ، وهي نبوية رائعة ، توفى سنة ١٣٠٢ هـ / ١٨٨٥ م ومن قوله فيها مستمدا من فكرة الحقيقة المحمدية الأزلية :

طَه الصَّرَاطُ الْمُسْتَقِيمُ مُحَمَّدٌ	تَسَاجُ الْخَلَائِقِ سَيِّدُ الْأَبْرَارِ
أَصْلُ الْوُجُودِ وَخَلْقُهُ وَعَتَادُهُ	وَمُفِيضُ بَحْرِ الْجُودِ وَالْأَنْوَارِ
نُورُ السَّرَاجِ وَكُلُّ نَجْمٍ طَالِعٍ	مِنْ نُورِهِ وَالشَّمْسُ وَالْأَقْمَارِ
وَالْحُورِ وَالْوُلْدَانِ فِي غُرْفَاتِهَا	وَالدَّرُّ وَالْيَاقُوتِ وَالْأَزْهَارِ
وَالعَرْنِيبِ وَالْكَرْسِيِّ وَالْأَلْوَابِ وَالْأُ	قْلَامِ وَالْأَفْهَامِ وَالْأَبْصَارِ
وَالْمَسْكِ فِي فَارَاتِهِ وَالنَّدَى فِي	أَحْقَاقِهِ وَالرُّوضِ ذِي الْأَنْوَارِ <sup>(٢)</sup>

وهو يقول إن طه هو محمد الصراط المستقيم الذي لا ينحرف أبدا تاج الخلائق سيد النسك . ويأخذ ابن حنبل في ذكر حقيقته الأزلية ، فهو أصل الوجود وزينته وعُدته ، ومفيض غيث كرمه وأضواء أنواره إنه أصل كل نور في السراج وفي النجوم والكواكب والشمس والأقمار ، وأصل كل جمال في حور الجنان وغلمايتها وفي اللؤلؤ والياقوت والأزهار ، وأصل كل وجود في العالم العلوي من عرش وكرسي وألواح وأقلام وفي العالم السفلي من أفهام وأبصار وهو طيب المسك في أوعيته وطيب الندى في حقايقه وشذا الأزهار في روضها المونق . ويستمر ابن حنبل في نفس الفكرة قائلا :

وَبِهِ نَجَا فِي الْفُلْكِ نُوحٌ وَأَهْلُهُ	وَنَجَا الْخَالِيلُ مِنَ التَّهَابِ النَّارِ
وَأَقَامَ آدَمُ فِي الْجِنَانِ وَزَوْجَهُ	وَبِنُوهَا فِي الْبَدْوِ وَالْأَمْصَارِ
وَيَمِينُهُ قَبْلَ الْإِلَهِ مَتَابَهُ	مَنْ بَعْدَ مَكْرِ الْخَادِعِ الْفَرَارِ <sup>(٣)</sup>

(٢) فارات المسك : أوعيته .

(٣) الخادع الفرار : إبليس .

(١) انظر في ترجمة ابن حنبل الحسنی وأشعاره الشنقيطي ص ٣١١ والشعر والشعراء في موريتانيا ص ١٧٨ وفي مواضع مختلفة .

ونجا الذبيحُ بذبحة من بعد ما  
وبه سرى موسى الكليمُ بقومه

وتحى عليه بصارمٍ يتار  
وبه انفلاقُ الخضرِم الزخار<sup>(١)</sup>

وهو يرُدُّ الخلاص من كل ما نزل بالرسول إليه وكذلك كل ما جرى على أيديهم من معجزات فهو سرُّ الوجود وكل ما فيه وكل ما حدث للأنبياء والرسول مستمد منه ، فيه نجا نوح ومن آمن به فى الفلك من الغرق ، ونجا إبراهيم الخليل من النار واستحالت بردا عليه وسلاما ، وبه كرم آدم وزوجه بمقامهما فى الجنة وأغواه إبليس فقبل الله يمينه وتوبته وأكرم ذريته فى البدو والحضر ، ونجا إسماعيل من ذبح أبيه إبراهيم ، وبيمنه سار موسى الكليم بقومه ليلا ، وانفلق له ولهم البحر الواسع الزاخر فكان كل فرق كالجلج العظيم وغرق فرعون ومن معه . وعلى هذا النحو يطيل ابن حنبل فى بيان الحقيقة المحمدية الأزلية ، فهو أصل كل موجود فى الكون وأصل كل نعمة أسبغت على الرسل يمينه وفضله . ويتحدث عن القرآن معجزة الرسول الكبرى قائلا :

وَأَتَى بِكُلِّ مَهِيْمٍ مَا إِنْ تَقْبَى  
لُسْنُ الْمَنَاطِقِ مِنْهُ بِالْمَعْشَارِ<sup>(٢)</sup>

آيَاتِ عِيسَى وَالْكَلِيمِ بِجَنْبِهِ  
كَالطَّلِّ جَنْبَ مُزْمَرٍ هَمَارِ<sup>(٣)</sup>

سُورٌ كَأَشْبَاهِ الرِّيَاضِ تَضَوَّعَتْ  
بَشْدَا الْعَبِيرِ وَجَوْنَةِ الْعَطَارِ<sup>(٤)</sup>

وَتَنَاسَقَتْ أَلْفَظُهَا وَتَنَاسَبَتْ  
آيَاتُهَا كَتَنَاسَبِ التَّقْصَارِ<sup>(٥)</sup>

وطوالها كقصارها وقصارها  
كالدَّرِّ تَبْرُزُ فِى نَحْوِ جَوَارِ

فالرسول ﷺ قد جاء بمعجز من القرآن الكريم ، لا يستطيع البلغاء الفصحاء الإتيان بسورة من مثله ، ومعجزات عيسى من إبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى ومعجزات موسى كليم الله من انفلاق البحر كل هذه المعجزات لموسى وعيسى بجانب معجزة القرآن الخارقة التى ليس لها سابقة ولا لاحقة كالمطر القليل بجانب السحاب المرعد الذى تنهمر أمطاره ، سور كريمة مثل الرياض تفوح بشذى الطيب ووعائه لدى العطار ، وألفاظها متناسقة تناسق الآلىء فى القلادة البديعة ، وطوالها مثل قصارها تشبه الدرر فى نحر الجوارى الفاتنات .

#### ٤

### الشعراء والشعر التعليمي

عرضنا فى كتاب العصر العباسى الأول كيف أن رقى الحياة العقلية حينذاك أدت إلى استحداث فن الشعر التعليمي ، وكان من السابقين إليه أبان بن عبد الحميد بترجمة كتاب كليله ودمنة عن الفارسية إلى العربية فى نحو ١٤ ألف بيت من الشعر المزدوج المنظوم من وزن الرجز وفيه

(١) الخضرم الزخار : البحر الواسع الطاغى موجه .

(٢) مهيمين : قاهر معجز . لسن المناطق : ألسنة البلغاء .

(٣) الطل : المطر القليل . مززم : سحاب ملء .

(٤) شدا : عطر . عبير : العبير .

(٥) التقصار : القلادة .

بالرعد . همار : مدرار كثير المطر .

تختلف القافية من بيت إلى بيت ، مع اتحاد الشطرين المتقابلين فيها بكل بيت ، ونظّم مزدوجات أخرى في التاريخ والفقہ . ومن حينئذ شاع هذا الفن الجديد في العراق وإيران والبيئات الإسلامية المختلفة ، وتكاثرت منظوماته في الأندلس والمغرب ، وتأخذ في الظهور بموريتانيا في القرن الثاني عشر الهجري وسرعان ما تتكاثر كثرة مفرطة في القرن الثالث عشر ، ومن أمثلتها في أواخر القرن الثاني عشر نظم المَجْدَرِي لما ورد عن العرب من كلمات على وزن فاعول ولاهاسين مثل طاووس وناقوس<sup>(١)</sup> . وولتقى بالمختار بن بون المتوفى حول سنة ١٢٢٠ هـ/١٨٠٦ م وله في النحو نظم سماه الاحرار ذكر فيه من تسهيل ابن مالك ما لم يذكره في الألفية ، ومزجه بها مزجا جيدا يدل على مهارة تامة<sup>(٢)</sup> . وكان يعاصره عبد الله بن الحاج إبراهيم العلوي المتوفى سنة ١٢٣٠ هـ/١٨١٤ م وقد نظم كتاب جمع الجوامع في أصول المذهب المالكي للسبكي وسمى نظمه مراقى السعود ، وألف شرحا لهذا النظم باسم نشر البنود يقول الشنقيطي : « لم يأت الزمان بمثله ، ولا جاد فيما مضى بشكله » وألف في علم البيان نظمه « نَوْرُ الْأَفَاحِ » ووضع له شرحا سماه « فيض الفتح » جمع من فنون البلاغة الثلاثة : المعاني والبيان والبديع الدرّ الثمين ، ألقى فيه الغث وأخذ السمين ، وله في مصطلح الحديث نظم سماه « طلعة الأنوار » وضع عليه شرحا<sup>(٣)</sup> ولابنه محمد منظومة في الأفعال جمع فيها ما في التسهيل لابن مالك وما في لاميته وما في شرح بحرق اليماني للامية ، وشرح المنظومة ، وهو عمل لغوي بارع ، ويقول الشنقيطي معبرا عن إعجابه بهذا العمل : ناهيك به<sup>(٤)</sup> . ولعبد الله بن أحمد الغلاوي معاصر ابن الحاج وأحد أفراد زمنه في العلم وأعلم من بأرض الخوض منظومات<sup>(٥)</sup> متعددة ، منها منظومته لرسالة ابن أبي زيد القيرواني في الفقه المالكي ، أنشد الشنقيطي من فاتحتها قوله :

ولم أكن جُدَيْلَ هذا الفنِّ وما على لَوْمَةٍ لأنِّي<sup>(٦)</sup>  
شَغَلْتُ بالنَّحوِ وبالبيانِ (وإن هذان لساحران)

ويذكر الشنقيطي أنه نظم متنا في الفقه لعبد الرحمن الأخضرى الجزائرى صاحب متن السلم المشهور في المنطق ، وبدأ نظمه بقوله :

عبدُ الإلهِ الشنقِطِيُّ يشترى بعقده المنظومُ يَبْرُ الأَخْضَرِيَّ

وقال إنه نظم أيضا متن الخزرجية في العروض ، واستهله نظمه لهذا المتن بقوله :

الحمد لله على تخريجى مسائل العلوم بالتدريج

(٥) انظر ترجمة الغلاوي عند الشنقيطي ص ٩١

وما بعدها.

(٦) جذيل : خبير .

(١) الشنقيطي ص ٢١٥ .

(٢) الشنقيطي ص ٢٨٠ - ٢٨١ .

(٣) الشنقيطي ص ٣٨ - ٣٩ .

(٤) الشنقيطي ص ٨٣ .

ويبدو أن منظوماته العلمية كانت سائغة جيدة ، ويقول الشنقيطي إنه هم بنظم مختصر خليل في الفقه ثم صرفه عن ذلك صارف<sup>(١)</sup> .

وللتجاني بن باب المتوفى حول سنة ١٢٦٠ هـ منظومة في أزواج النبي ﷺ وأولاده من منه وما لكريماته الطاهرات من بنين وبنات ، وله على هذه المنظومة كما يقول الشنقيطي شرح نفيس . وله أرجوزة نظم فيها ورقات الجويني إمام الحرمين في علم الأصول<sup>(٢)</sup> . واشتهر أحمد البدوي المجلسي بمنظومتين<sup>(٣)</sup> : منظومة في أنساب العرب سماها عمود النسب استهلها بقوله :

حمداً لمن رفع صيت العرب وخصمهم بين الأنام بالنبي  
والمنظومة الثانية في غزوات الرسول ﷺ ، وينوه الشنقيطي بجودة نظمها وأنها تدل على تبحره في السيرة النبوية ، افتتحها بقوله :

حمداً لمن أرسل خير مرسل  
لخير أمة بخير الملل  
وأفضل الصلاة والسلام  
على لُباب صفوة الأنام  
وأُتشد له الشنقيطي قطعتين في غزوة الخندق وغزوة حنين . ومن أكثروا من الشعر التعليمي في النحو عبد<sup>(٤)</sup> للودود بن عبد آل من نخاة النصف الثاني من القرن الثالث عشر الهجري وشعرائه ، وله مقطوعة في مد المقصور استهلها بقوله :

ومدُّ مقصورٍ خلافه اشتهرُ  
وفصَّلَ الفراءُ تفصيلاً بهرُ  
ومضى في المقطوعة يذكر تفصيله لأحكام مد المقصور ، ويقول الشنقيطي : « له قصيدة غزلية في المصادر الغريبة ، وما ترك مسألة عويصة في النحو إلا نظمها أسلس نظم وأتقنه ، وعلى شاكلته المختار بن أُمّاً ، يقول الشنقيطي : توفي بعد سنة ١٣١٠ هـ/١٨٩٣ م وله أنظام كثيرة في النحو<sup>(٥)</sup> ، ومثلهما الحسن بن زين تلميذ عبد الودود المتوفى قريبا من ١٣٢٠ هـ/١٩٠٣ م يقول الشنقيطي : له استدراك على لامية الأفعال لابن مالك مزجه بها ولولا أنه كتبه بالحمزة لا لتبس بنظم ابن مالك ، وله أنظام كثيرة مفيدة ، وينشد بعض نظمه في مسائل نحوية<sup>(٦)</sup> .

(٤) انظر ترجمته في الشنقيطي ص ٣٧٤ .

(٥) الشنقيطي ص ٢٣٩ .

(٦) الشنقيطي ص ٣٧٧ - ٣٧٨ .

(١) الشنقيطي ص ٩٢ .

(٢) الشنقيطي ص ٧٠ .

(٣) انظر ترجمته في الشنقيطي ص ٣٥٠ .